المجموعة الأولى من الأسماء الحسنى
وهي المتعلقة بالخلق والإيجاد والتكوين

نذكر المجموعة الأولى من أسماء الله الحسنى المتعلّقة كُلّها بالخلق والإيجاد والتكوين وهي: الحكيم، الرشيد، الخالق، البارىء، البديع، المُصَوِّر، الهادي (في أحد معانيه)، المبدىء، المعيد، الباعث، المُحْيِي، المميت، الجبار، القهار، القيّوم، الحفيظ، المؤمن (في أحد معانيه)، المهيمن (في أحد معانيه).

2 ـ الحكيم

وحيث علمنا أن اللَّهَ سبحانه حَيٌّ عَليمٌ، يفعل ما يشاء ويختار، فلا بُدَّ أن نكونَ جميع أفعاله سبحانه موافِقَةً للحِكْمَة، مُطابِقَةً للرشاد؛ لأنه عليمٌ فلا جَهْلَ يَحْجُبُهُ عن الكمال، ولأنه قادر فلا عَجْزَ يَمْنَعُهُ عنه، ولأنه يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويختار، فلا شيء يُجْبِرُه على النقص، ولأنَّه مُنَزَّهٌ عمّا لا يَليقُ بالأُلوهِيَّة والرُّبوبيَّةِ، فلا شَهْوَةَ تُزَيِّنُ لهُ النَقصَ وتَصْرِفُه عن الكمال، ومِن هنا جاء في أسماءِ اللَّهِ الحسنى (الحكيم).

ومعنى (الحكيم) أي: ذو الحِكْمة، وهي الإصابَةُ في التقدير، والإحسانُ في التدبير، ومِنْ ذلك نرى جميعَ أفعالِ الخالِقِ مُوافِقَةً للحِكْمَة، ولَئِن خَفِيَتْ عَنّا الحكمةُ في بَعْضِ أفعالِ الخالِقِ، فَذَلِكَ مِن قُصُورِ نَظَرِنا، وضِيقِ أُفُق تفكيرنا وتجاربنا، ومن تأثُّرنا بالعوامل النفسيّة والغَريزيَّة فينا، قال اللَّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 6]. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في (97) مَوْضِعاً.

قال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ

في «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (والحكمة عبارةٌ عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، وأجلُّ مَن يُعْرَفُ هُو اللَّه سبحانه وتعالى، وقد سَبَق أنه لا يعرفه كنه معرفته غيرُه، فهو الحكيمُ الحقُّ، لأنّه يعلمُ أَجَلَّ الأشياء بأَجَلِّ العلوم، إذْ أَجَلُّ العلوم هو العِلْمُ الأَزَليُّ الدائِمُ الذي لا يُتَصَوَّرُ بذلك إلَّا عِلْمُ الله تعالى، وقد يُقالُ لمن يُحْسِن دَقائِقَ الصناعات ويُحْكِمُها ويُتْقِنُ صَنْعَتها: حكيمٌ، وكمالُ ذلك أيضاً ليس إلّا لِلَّهِ تعالى، فهو الحكيمُ الحق.

ومَن عرف جميع الأشياء، ولم يعرف اللَّهَ تعالى، لم يَسْتَحقَّ أَنْ يُسَمَّى: حكيماً؛ لأنه لم يَعرِف أَجَلَّ مَن يُعْرَفُ وأَفْضَلَهُ، والحكمَةُ أَجَلُّ العُلوم، وجلالَةُ العلوم بقدر جلالَةِ المَعْلُوم، ولا أجلَّ من الله سبحانه وتعالى. ومَن عَرَف اللَّهَ فهو حَكيمٌ، وإن كان ضعيفَ الفِطْنَةِ في سائر العلوم الرسمِيَّة، كليلَ اللسانِ، قاصِرَ البيان فيها.

إلّا أن نسبة حِكمةِ العبد إلى حِكْمَةِ اللَّهِ تعالى كَنِسْبَة معرفته به إلى معرفة اللَّهِ بذاته، وشتَّانَ بين المَعْرِفَتَيْنِ، فشتَّانَ بين الحكمتين، ولكنه مع بعده عنه فهو أَنْفَسُ المعارفِ، وأكثَرُهَا خيراً، ومَن أوتِيَ الحِكْمَةِ فقد أوتِي خَيراً كثيراً. ومَن عرف اللَّهَ كان كلامُهُ مُخالِفاً لكلام غيره، فإنّه قَلّما يتعرّض للجزئيات، بل يكون كلامُه كليّاً، ولا يتعرَّضُ لمصالح العاجلة ـ أي: الدنيا ـ بل يتعرض لِما ينفع ـ في العاقبة.

آثار الحكمة تدلّ على الحكيم

لا شك أن آثار المخلوقات تدلّ على حكمة الحكيم، ونجد هٰذا واضحاً في كل مخلوق في هذا الكون، وكذلك في علاقة كثير من هذه المخلوقات مع بعضها في أصل خلقها، دون أن تعبث بها يدُ إنسان، فمن ذلك الحياة على سطح الأرض، التي هي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية، فالتُرْبَة تحتوي العناصر التي يمتصُّها النبات، فيحوّلها إلى طعام للحيوان والإنسان، ويوجد كثيرٌ من المعادن قريبة من سطح الأرض، ممّا هيّأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة ونشأة كثير من الصناعات، وعلى ذلك فإن الأرض مُهَيَّأَةٌ على أحسن صورة للحياة، ولا شكّ أنّ كُلَّ هٰذا من تيسير حكيم خبير، ولو شاء الله لخلق الأرض على غير هٰذه الصورة التي هي عليها الآن.

لو كانت الأرضُ في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها، لتضاعفت جاذبيّتها للأجسام التي عليها 15 ضعفاً، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوّي إلى أربعة أميال، ولأصبح تبخّر الماء مُسْتَحيلاً ولارْتَفَعَ الضغط الجوّي إلى ما يزيد على 150 غ على السنتمتر المربّع، وَلَوَصَلَ وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً واحداً إلى 150 رطلاً، ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم السنجاب، ولتعذّرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو ابتعدت الأرض عن الشمس لنَقُصَت كمية الحرارة التي تتلقّاها من الشمس، ولقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء، ولتجمّدت الكائنات الحيّة على سطح الأرض.

ولو اقتربت الأرض من الشمس لارتفعت الحرارة، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس، واختلّت الفصول، ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

يُفهم من هٰذا أن الوضع الحالي للأرض مختار بحكمة فائقة وحسابات بالغة في الدقّة، وأن الأرض بحجمها وبُعْدِها الحاليَّيْن عن الشمس، وسرعتها في مدارها الحالي تهيّئ للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صُوَرها المادِّيَّة، والفكرية، والروحية على النحو الذي نشاهِدُه اليوم في حياتنا الاعتيادية، التي لا نلقي لها بالاً، ولا نتساءل لماذا اختيرت هٰذه الأوضاع دون غيرها، ومَن اختارها، ولماذا، وهل يستحِقّ الشكر والثناء والتقدير أم لا؟ لا شك أنه تدبير الحكيم جلّ جلاله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: 190 ـ 194].

3 ــ الخالق

عَلِمنا أنّ اللَّهَ سبحانه هو وَحْدُهُ واجِبُ الوُجُود، ووجودُه وَحْدُه هو الأصْلُ، وأنَّ كُلَّ ما عَداهُ من مَوْجُودات، إنّما وُجِدَ بِإرادَتِهِ تعالى وقُدْرَتِهِ، وهٰذا الإيجادُ مِنَ العَدَمِ هو أعلى ما يُطْلَقُ عليه اسمُ الخَلْقِ، كان الله هو الخالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، ومِن هنا جاء في المأْثُورِ مِن أسمائه الحُسْنَى (الخالِقُ)، وقد ورد في القرآن الكريم في ثمانية مواضع.

وهو مأخوذٌ من الخَلْق، وأَصْلُهُ التَقْدِيرُ المُسْتَقِيمُ، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: 102]. ويُسْتَعْمَل بمعنى الإبْداع، وهو إيجادُ الشيء مِنَ العَدَم لاعَلَى مِثالٍ سابِقٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: 36].

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الخالِقُ هو الذي أوجد الأشياء جَميعَها بعد أن لم تكن مَوْجُودَة، وأَصْلُ الخلق: التَقديرُ، فهو باعتبارِ تقديرِ ما منه وُجُودُها، وباعتبار الإيجاد على وَفْقِ التقديرِ خالِقٌ).

وقال حجَّةُ الإسلام الإمامُ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغَزَّاليّ في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنى»: (كلُّ ما يخرُجُ من العَدَم إلى الوُجُودِ يَفْتَقِرُ إلى التقدير أوَّلاً، وإلى الإيجادِ على وَفْقِ التقديرِ ثانياً، وإلى التصوير بعدَ الإيجاد ثالثاً، واللَّهُ تعالى خالِقٌ من حيث إنّه المُقَدِّرُ والموجِدُ، والمُزَيِّنُ المصوِّرُ.

كالبناء مثلاً، فإنه يحتاج إلى مُقدِّرٍ يُقَدِّرُ ما لا بُدَّ منه، من الخشب، واللَّبِن، ومساحةِ ا رض وعددِ الأبنية وطولها، وعرضها، وهٰذا يتولّاه المهندس، فيرسُمُهُ ويُصوِّرُه، ثم يحتاج إلى بَنَّاءٍ يتولّى الأعمال التي عندها يحدث حصول الأبْنِيَة، ثم يَحْتَاجُ إلى مُزَيِّن يَنْقُشُ ظاهره، ويُزَيِّن صورَتَهُ، ويتولّاهُ غَيْرُ البَنّاءِ، هٰذه هي العادات في التقدير، والبناء، والتصوير، وليس كذلك في أفعال اللَّهِ تعالى، بل هو المُقَدِّرُ، والمُوجِدُ، والمُزَيِّنُ، فهو الخالقُ البارىء المُصَوِّرُ.

فمِن عَلِمَ أن كلَّ شيء حوله مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، مَمْلُوكٌ له، قبضته بيده، محتاجٌ في كلّ لَحْظةٍ إليه سبحانه، فقيرٌ إليه، إذا شاء أبْقاهُ، وإذا شاء أفناه، لم يُعَلِّق قَلْبَهُ بشيء سِوَى الله الخالق، ونظر لكلّ ما حوله نظرة استِغْناء، ولجأ إلى الله الخالِقِ المالكِ المتصرّف، وعلّق قلبه به، فخافه ورجاه، وتاب إليه وأناب، وأقبل على طاعته بكلِّيته ولم يغفل عن ذكره بقلبه وخواطره ولسانه، واشتغل طول حياته برضاه، والعمل على نشر دينه ونُصرته، وتعلّمه وتعليمه، والجهاد في سبيله حتى يعلو، وعلم أن الأسباب بيد الله، وأنه هو مُسَبِّبُها، فلم يتعلّق بالأسباب، واعتمد على مُسَبِّبها، فأراح قلبه واستراح، واطمئنّ إلى مولاه، ولاذ بجنابه، وهٰذه هي حقيقة الإيمان.

المخلوقات تدلّ على الخالق

إنّ كلّ شيء في الكون، صغيراً كان أم كبيراً يدل على تجلّي الخالق سبحانه وتعالى عليه بهذا الاسم. ولو نظر الإنسان في نفسه، وفي كل عضو من أعضائه، وفي الكون حوله، في السماء وما فيها من كواكب ونجوم، وليل ونهار، وغيوم وأمطار، وجاذبية وقوانين، وفي الأرض وما فيها من حياة، وعوالم متنوّعة؛ فمن عالَم الطيور وأسرارها، إلى عالم الحيوانات وتنوّعها، وعالم البحار وأسماكها، وعالم النباتات وأنواعها، وعالم الناس وطبائعها ومجتمعاتها وعاداتها وتقاليدها، لاهتدى إلى خالقها.

ولن نتعرّض لكل المخلوقات لنبيّن أهمية هٰذا الاسم (الخالق) ونفهم معناه، ولكن يكفي أن نأخذ مثلاً واحداً من الخلق، وليكن من أنفسنا نحن البشر لنهتدي إلى عظمة الخالق، فقد قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: 4] وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: 21]، ولنتأمل في مُخ الإنسان ودماغه.

إن المُخّ في الإنسان هو مناط التفكير والإدارة، وإن أجهزته المتعدّدة تتعاون بشكل عجيب ليصدر عنها تصرفات الإنسان بشكل محكم متقن، فيه تفكير وروية، وعقل وحكمة، فَحَرِيٌّ بنا أن نتعرّف على كيفية خلق هذا المخلوق وأقسامه وبعض وظائفها، فهو من الناحية الفيزيولوجية يتألف من خلايا لحمية،

وينقسم إلى عدة أجزاء تُسمّى: الفصوص، ويخترقه منخفضات عميقة تسمّى: الأخاديد، وهو يزن عند الرجل المتوسط العمر حوالي (1400) غراماً، وهو أنقص منه عند المرأة ليصل إلى 1300 غراماً. يحتمي داخل صندوق عظمي مَتين هو الجمجمة، وقد حفظه الله تعالى بثلاثة أجهزة دفاع أمنية تمنع تعرّضه لأي صدمة أو ضربة أو تأثير يمنعه عن القيام بعمله، فهناك ثلاثة أغلفة غشائية بينها ماء تساعده على تحمل الصدمات، الداخليُّ منها رقيق جداً تتخلّله الشرايينُ والأَوْرِدَةُ التي تُغَذّيه. **فالمخ هو المركز الرئيسي للجهاز العصبي، أو هو (السنترال) الذي يُرسِل الإشارات إلى جميع أجزاء الجسم**، ومِن المُخّ تصدر الأوامر بكلّ حركة يتحرّكها الجسم، فعينُ الإنسان وأُذُنُهُ وجِلْدُه تَنْقُل الأحاسيس إلى هٰذا المركز الذي يترجمها بلغته إلى مرئيّات ومسموعات، وأحاسيس، وإذا أراد الإنسانُ المشيَ، أصدر أوامره بواسطة الأعصاب إلى الأطراف، فتحرّكت، كمثل السيارة فيها محرّك يدور، وينقل حركته إلى العجلات فتمشي السيارة.

وقد عجز العلماء الأوّلون والآخرون عن تفسير عمل المخ، فهو مولّد كهربائي، يرسل تيّاراته الكهربائية وإشاراتها عن طريق الأنسجة العصبية إلى العضلات، وهناك 12 زوجاً من الأعصاب تخرج من المخ عبر ثقوب صغيرة، وتمرّ خلال الأنسجة، وتتوزّع على الجلد والعضلات والأعضاء الأخرى في الرأس والرقبة، ومن أهمّها أعصاب الشمّ والبصر والسمع والذوق.

ويوجد بالمخ مركز لاختزان المعلومات المتجدّدة للإنسان في كل لحظة، فهو يحتفظ بملايين الذكريات والمعلومات والصورة، وقد وُهِبَ قدرة استرجاعها بشكل منظّم وسريع في الوقت المناسب بالرغم من أن خلايا جسم الإنسان تتلف وتموت وتتجّدد في كل لحظة ويولد غيرُها، فكيف لا تموت المعلومات معها؟ إنه سؤال مُحَيِّر، عجز العلم عن الإجابة عنه إلى يومنا هذا، ولو حاول العلماء تخزين هٰذه المعلومات في الحاسوب (الكمبيوتر)، لاحتاجوا إلى آلاف الأقراص وَلَمَا وسِعَها قُرْصٌ واحد.

وعموماً فإن دماغ الإنسان جهازٌ عجيب التركيب، ولو جمعنا ما في العالم من أجهزة الإبراق، والهاتف، والرادار، والتلفزيون واستطعنا أن نُحَوِّلها جميعاً

إلى قطعة صغيرة في الحجم فإنها لا تبلغ في تعقيدها درجة دماغ الإنسان ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: 88].

الإعجاز العلمي يؤدّي للإيمان بالخالق

ما هو الإعجاز العلمي: العلم الحديث هو ثمرة الجهد العقلي العلمي، والتجارب العلمية التي قام بها الإنسان عبر آلاف السنين، ونقصد بالإعجاز العلمي الحقائق العلمية التي عرضها القرآن الكريم حين نزوله على النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزمن، في وقتٍ لم تكن البشرية في تقدّمها العلمي قد توصّلت إلى معرفتها بعد، ولكن مع تطوّر الوسائل العلمية عبر الزمن، وتقدّم المستوى العلمي للبشرية في العصر الحديث، توصّل العلماء لهٰذه الحقائق، فهٰذه المعلومات التي كان يعجز البشر عن الإتيان بمثلها في ذلك الوقت، هي إعجاز لهم، ليؤكّد أنّ هٰذا الكتاب هو من عند الله، ويؤكد صدق الرسول ﷺ في رسالته وتبليغه عن ربّه، ويدُلّ على وجود خالق لهٰذا الكون، ويقوّي الإيمان به، ويدفع الشكوك والأوهام عنه، كما يدلّ على صفاته الكمالية، وأسمائه الحسنى.

لما أُنْزِلَ القرآن على قلب الحبيب محمد ﷺ كانت في الأرض حضارتان قويّتان تتنازعان السيطرة، دولة الرومان، ودولة الفرس، وشريعتان هما: اليهودية والنصرانية، وكان العرب في جزيرتهم في جاهلية عمياء، وعبادة للأوثان، فلم تكن البشرية تؤمن بالله الإيمان الصحيح، فقد أشرك به الرومان بنسبة الزوجة والولد له، وانحرف الفرس في عبادتهم لغير الله، واتخذوا من النار إلٰهاً، فأرسلَ الله نبيّه محمداً ﷺ ليبيّن للناس الدينَ الحقّ، وليصحّح مفهوم الألوهيّة عند البشر، فينزّه الله عن الشريك، وعن الزوجة والولد، والنقص، والتشبيه بالمخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وليدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد، وكم سقطت عقائد وملل ونحل ومذاهب أمام التطوّرات العلمية الهائلة المعاصِرة، وأما الإسلام فقد بقي بعقيدته، بل جاء العلمُ الحديث ليؤكّدها باكتشافاته واختراعاته وتقدّمه، وهٰذا إعجاز، لأنّ كلّ العقائد الفاسدة عجزت عن اللحوق بركب الحضارة الحديثة ومواكبتها، بينما جاء العلم الحديث ليبرهن على صحّة العقيدة الإسلامية، وهٰذا ما يُنْبِئُ بأن المستقبل للإسلام.

مدى العلم الحديث والحضارة المادية

البشرية اليوم بحاجة ماسَّة لسموّ الروح، وسط الصراع المادّي على السيطرة الفردية. وإنّ سوء استخدام القوّة، والطاقة، والاكتشافات العلمية من قِبَل بعض المادّيّين المُلحدين العَلْمانيين، ومحاولتهم استعباد الناس بالقوة، وإذلال رقابهم بفرض مبادئهم فرضاً، وعَبَثِهم المُضِرّ بحياة البشرية دليل على إفلاسهم الحضاري، فهم مثلاً قد تسبَّبوا في إحداث ثُقْبٍ في طبقة الأوزون، وهي بالغة الأهمية من أجل الحفاظ على الحياة على سطح الأرض؛ ذلك لأنها تمتصّ الأشعة فوق البنفسجية من فئة (ب) الخطرة على الكائنات الحية كافة، ومن نتائج ثقب هذه الطبقة إحداث أضرار جسيمة على البشر. ومنها: التسبب بسرطانات الجلد، وحدوث تلف في الحمض النووي (DNA) التأثير الوراثي، ومنها: ضعف الجهاز المناعي للإنسان، ونقص المحاصيل الزراعية، وإتلاف الغابات، وتغيّر المناخ على سطح الأرض. والسَبَبُ في إحداث ثقب الأوزون هو إنتاجُ مُركّبات (الكلورو فلورو كربون) كل سنة في العالم، بما يزيد على المليون طن، وتُنْتِج أمريكا وحدها ثلث هٰذه الكمية، وتنتج أوروبا ثلثها الثاني، وتُنتجُ اليابان 15٪ منها، وهٰذا كله يؤدي إلى اختلالات خطيرة في حياة الإنسان على وجه الأرض، ومنها: تبدّل الطقس من حرارة وبرودة.

كذلك فإن إحراق (الوقود الحفري) المستخرج بالحفر كالنفط، يعتبر المصدر الرئيسي لانبعاث ثاني أوكسيد الكربون المُصنَّع، ويساهم هٰذا الغاز بنسبة 50٪ من غازات الاحتباس الحراري، وتشير التقارير بسببه بأن من المتوقَّع أن ترتفع درجة حرارة الأرض، مما سيؤدّي إلى ذوبان بعض جليد القُطبَيْن ممّا يُغْرِقُ بعضَ المناطقِ الساحلية المنخفضة. إن هٰذا كله ينذر بفشل الحضارة المادية المعاصرة لخوائها الروحي، وفسادها الأخلاقي، وإضرارها بالإنسان بسبب سوء استخدامها للعلم ومكتشفاته.

القرآن كتاب هداية

والقرآنُ الكريم هو كتاب هداية، أنزله اللَّهِ لِلبَشَر ليهديهم إلى الدين الحق، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وليرشدهم إلى الصراط المستقيم في الدنيا

الموصل إلى رضوان الله، وليبيّن لهم شرعه الّذي ارتضى لهم، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]. وليس كتاب هندسة أو رياضيات، أو طب، أو فيزياء، أو كيمياء، أو فلك أو غيرها من العلوم الكونية، وعلى الرغم من ذلك، فقد تضمن آيات تحدّثت عن ظواهر علمية وفلكية وهندسيّة وطِبّيّة توصّل العلم الحديث إلى اكتشافها، بعد تطوّر وسائله وتجاربه ونظريّاته ليلفت أنظار الناس إلى الإيمان بالله بذكر آيات في الكون يستدلّون بها على الخالق العظيم الحكيم الخبير، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٦﴾ [النور: 46]، ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: 101]، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: 21]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾ [النور: 45] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٣ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٤﴾ [النور: 43 ـ 44].

وليستدلّوا على اليوم الآخر أيضاً قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [فصلت: 39]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: 78 ـ 79]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: 9 ـ 11] وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الروم: 50].

وهو يدعو الناس إلى إعمال العقل، والتأمل، والتفكّر، والنظر في المخلوقات من حولهم ليؤمنوا بالخالق، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ

خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ [الغاشية: 17 ـ 22].

شروط التفسير العلمي: لا يسوغ لأحد أن يفسّر القرآن برأيه لقوله ﷺ: **«من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»**. (أخرجه الترمذي وأحمد) وقد حدّد العلماء شروطاً يجب أن تتوافر في المفسّر منها:

1 ـ أن يكون التفسير منبثقاً عن أحد المصادر الخمسة لتفسير القرآن، وهي: تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالحديث إن لم يوجد في القرآن، فإن لم يوجد فيهما فبأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين إذا اتفقوا، وبلغات العرب، فإذا كان هناك معنيان لغويّان أخذنا بما يوافق المصادر الأربعة السابقة، مع كون المفسّر يتمتّع بشروط المفسّر التي ذكرها العلماء في كتبهم، وأهمها: علم التوحيد والإيمان، ومعرفة ما يجب لله وما يجوز في حقّه وما يستحيل عليه، وعلم الحديث؛ لأن السنة تفسّر القرآن وتبيّن مُجْمَلَه ومُبْهَمَه، وتخصّص مُطلقه، وعلم الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية من حلال وحرام، ومعرفة أصول الفقه، وقواعد استنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها التفصيلية، وعلوم اللغة العربية بنحوها وصرفها، وبلاغتها، ووجوه الاستعمالات اللغوية ليفهم الكلام على وجهه الصحيح، ولا يخرج عن ذلك. ويُضاف إلى كل ذلك خوف المفسّر من الله العظيم من أن يقول في كتابه بغير علم، ويلوي معاني الآيات ويبتعد عن معانيها الأصلية ليؤيّد نظريات مخالفة للدين الحق، كما نشاهد اليوم من كثير ممّن يخترقون الإسلام من العَلْمانيين، الذين يريدون حرف المسلمين عن دينهم، بإحداث مفاهيم جديدة لم يقل بها الأوّلون والآخرون، يخالفون بها عقائد المسلمين ليُخْرِجوهم من دينهم.

4 ــ الرشيد

أي ذو الرَّشاد، والرَّشَادُ: مُوَافقة الحقّ والصواب في جميع الأفعال. ومن ذلك نرى جميع أفعال الخالق موافِقَةً لوجه الرَّشادِ والحقّ.

لم يَرِدْ هٰذا الاسمُ في القرآن الكريم، لكنَّه مُجْمَعٌ عليه، وقد ورد في حديث أبي هريرة: ﷺ الذي أخرجه الترمذي والبيهقي في كتابه «الدعوات الكبير».

قال حُجَّة الإسلام الإمامُ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنَى»: (الرشيد هو الذي تَنْسَاقُ تَدْبيراتُه إلى غاياتها على سنن السداد مِن غير إشارة مشير، وتسديد مُسَدِّد، وإرشاد مرشد، وهو الله تعالى، ورُشدُ كلِّ عَبْدٍ بِقَدْرِ هِدَايَتِهِ في تَدْبيراتِهِ إلى إصابة شاكِلَةِ الصوابِ من مقاصده في دينه ودُنْياهُ).

وقال الإمامُ مجدُ الدين أبو السعادات المُباركُ بن محمد الجَزَرِيُّ المعروف بابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الرشيدُ هو الذي أَرْشَدَ الخَلْقَ إلى مَصالِحِهم أي هَداهُم ودَلَّهُم عليها، فهو على وزن (فَعِيل) بمعنى (مُفْعِل) أي مُرشِد.

وقد جاءت كلمة (رشِيد) في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى حاكياً عن نبيّه لوطٍ عليه السلام مخاطباً قَوْمَه وقد أرادوا الاعتداء على ضيوفه بالفاحشة: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: 78] أي فيه خيرٌ ما آمره به، وقال حاكياً على لسان قوم نبيه شعيب عليه السلام بعد أن أمرهم بعبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان وعدم الإفساد في الأرض: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] أي العاقل المُهْتَدِي الحكيم. قال ابن عباس: يقولُ ذلكَ أعداءُ الله لنبيّهم على سبيل الاستهزاء، قَبَّحُهُمُ اللَّهُ ولَعَنَهم.

وقال تعالى حاكياً عن إرسال نبيِّه موسى عليه السلام إلى فرعون أنّ فرعون لم يكن على رُشدٍ من أمره بادّعائه الألوهية، واتِّباع قومه له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 96-97] أي ليس فيه رُشدٌ ولا هُدًى، وإنما هو جَهْلٌ وضلالٌ وكُفْرٌ وعِناد.

كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ**

الراشِدِينَ مِنْ بَعْدِي» (أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد) يُريد بهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم، والراشِد اسم فاعل من رَشَدَ يَرْشُدُ رُشْداً.

إنّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ رَشِيدٌ، وأن جميعَ أفعال الخالق موافِقَةٌ لوجه الرَّشاد والحقّ والصواب يَثِقُ بِرَبِّه ويَمْضِي على بَصِيرَةٍ مِنْ أمره دونما شَكٍّ في إيمانه أو عقيدته، وهٰذا ما يميّز إيمان المسلمين عن غيرهم، فهم على ثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ تامَّةٍ بأنهم على الحقّ والهُدَى والرشاد وهٰذا ما يحملهم على الثبات على حقّهم ودينهم وعقيدتهم وعدم التخلّي عنه مطلقاً.

نَجاةُ المُؤمِن مِنْ عذاب الحيرة والشَّكِّ

لقد جاء الدين من عند الله مرشِداً للإنسان بما يُكمِّلُ فطرته، ويأخذ بيد عَقْلِه، ولم يجيء بما يُصادم الفطرة، أو يُناقض العقل، والعقلُ مهما أوتي من الذكاء والقدرة على الاستنتاج محدود مُقيَّد بقيود الزمان والمكان والوراثة والبيئة، فلا غِنَى له أبداً عن سَنَدٍ يُسَدِّدُه إذا أخطأ، ويهديه إذا ضلّ، ويُرشده إلى الصواب، وهٰذا السند هو الوحيُ من عند الله، الذي أراح الإنسان من عناء البحث فيما يبدّد طاقته دون الظفر بما يُشْبِع ويُغنِي. وأعفاه من السير في دروب مُعْتِمَة ومُلْتَوِيَة، لا يدري أين توصله، وقدَّم له ما ينبغي أن يعلمه عن مبدأ الوجود ومنتهاه، وعلّته وأسراره، سالِمَةً من جدل المجادِلين، وفلسفة المتفلسفين، وأوهام المُتكلِّفين.

كيف يكون حال الإنسان لو مشى في درب الحياة وحده دون دليل مِن وحْي الله؟ إنه سيضرب في مَتاهة لا يعرف فيها شيئاً، ويَسْبَحُ في بحار من ظلمات الشك والحيرة، لا يهتدي فيها إلى بَرٍّ وقرار، كالتي حدّثنا عنها الله تعالى في كتابه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 40]. لقد حاول كثير من الفلاسفة في القديم والحديث أن يحلّوا ألغاز الوجود، ووضعوا فلسفات وتشريعات، وسَنّوا قوانين ودساتير ليظفروا بطمأنينة النفس البشرية وسعادتها، عن طريق الفلسفة البشرية بعيداً عن هدى الله فأفلسوا وعجزوا.

الفلسفة الإسلامية: قال الفيلسوف المسلم الفخر الرازي في كتابه «أقسام اللّذات»، بعد أن طالع أفكار الفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين: «لقد تأمَّلْتُ الكتبَ الكلاميَّة، والمناهج الفلسفية، فما رأيتُها تروي غليلاً، ولا تُشْفِي عليلاً، ورأيتُ أقربَ الطُرُقِ طريقة القرآن، ومَن جَرَّبَ تجربتي عرف مثل معرفتي».

وهكذا أفْلَسَت الفلسفات البشرية أن تمنَحَ القلبَ الإنسانيّ طمأنينته التي هي أول عنصر لسعادته، ومَحالٌ أن يَسْعَدَ إنسانٌ يُؤرِّقُ الشكُّ ليله، ويُكدِّر القَلَقُ نهارَه، وعَرَفَ المُنْصِفُونَ أن أهْدَى السُبُلِ وأقرَبَها وآمَنَها للظفر بالطمأنينة إنما هو سبيل الله، إنه البَلْسَم الشافي من الشك المُحَطِّم، والقَلَق المُفْزِع، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: 43]، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل: 89]، والحق لمُبين هو الذي اتّضحت أعلامه واستبانَتْ طريقه، وزال عنه الغُموضُ واللَّبْسُ، والاختلافُ والرَّيْبُ، وشعورُ الإنسان واعتقاده أنه على (الحق المُبين)، وأنه على (صِراطٍ مستقيم) شعورٌ لا يَظفَرُ به غيرُ المؤمن بوحْيِ اللَّهِ وهُداهُ، وأما الذي شَرَدَ عن هُدَى اللَّهِ فهو ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: 71]. إن الوحيَ وحدَه هو لسبيل للوصول إلى اليقين في قضايا الوجود الكبرى، وبغير الوحي لن يهتدي لإنسان ولن يكون لديه يقين، وبغير اليقين لن تكون لديه سَكينة، وبغير السكينة لن تكون سعادة. بالوحي وحده يبلغ المؤمن درجة علم اليقين، وقد يرتقي بروحه حتى يشارف عين اليقين، قال أحد الصالحين: «لو كُشِف الغِطاءُ ما ازدَدْتُ يَقيناً»، ذلك لأنه آمن بما أخبر به الوحيُ إيماناً تَجَلَّت به حقائق الوجود لعين قلبه كأنه يراها بعينيه، ويشهدها حاضرة كالشمس في رابعة النهار.

طريقاً موصلاً إلى غاية لا عِوَجَ فيها، ويدفعه إلى السير في هذا الطريق القويم؟ ما الذي سينظم علاقته بربّه، وعلاقته مع نفسه، ومع أسرته وعائلته، والمجتمع من حوله؟ هل هي سلطة الحكم والقانون؟ أم الفلسفة؟.

أما سلطة الحكم والقانون فهي أمر لا بُدَّ منه لتنظيم شؤون الجماعة وتحديد علاقاتها، ولكنها لا تصلح وحدها لضبط سلوك البشر؛ لأن سلطانها على الظاهر وليس على الباطن، ودائرتها في العلاقات العامة لا في الشؤون الخاصّة، ومهمّتها معاقبة المسيء دون أن تستطيع مكافأة المحسن، كذلك فإن البشر في مقدورهم التحايل على سلطة القانون، وتطويع نصوصه لأهوائهم، والهرب من عقوباته، فالقانون وحده إذن عاجز عن أن يكون زاجراً عن الشرّ، ورادِعاً عن الجريمة والفساد، وهو أعجز أيضاً عن أن يكون دافعاً إلى الخير، أو باعثاً على حق، أو حافزاً على عمل صالح.

إذن فلا غِنى لسلطة القانون والحكومة عن سلطانٍ نازعٍ وازعٍ، يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حُرُماتِه، وقد تبيّن بالاستقراء التاريخي أنه ليس على وجه الأرض قُوَّةٌ تكافىء قوّة التَدَيُّن، أو تُدانيها في كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه.

والسرُّ في ذلك أن الإنسان يمتازُ عن سائر المخلوقات الحية بأن حركاته وتصرُّفاته الاختيارية تَنْبُعُ من عقيدته، فالعقيدة والإيمان هما المُوَجِّهان لتصرُّفات الإنسان الخارجية، والإنسانُ يُسَاق من باطنهِ لا مِن ظاهره، وليست القوانين ولا السلطات الحكومية بكافِيَيْن وحدهما لإقامة مَدَنِيَّة فاضلة تُحْتَرَمُ فيها الحقوق، وتُؤَدَّى الواجباتُ على وجهها الكامل، فإنّ الذي يؤدِّي واجبه رَهْبَةً من السَوْط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يُهمِلَهُ متى اطمأنَّ إلى أنه سَيَفْلِتُ من سلطة القانون.

كذلك فإنه من الخطأ أن نظن أن في نشر التوعية والثقافة وحدها ضماناً للأمن والرخاء، إذا لم يكن هناك رادِعٌ ديني وتربية وتهذيب خلقي، تدفع الإنسان للعمل والأخذ بالتعاليم. إن هناك حلقةً مفقودة لم يتوصل الغربُ إليها في حضارته المادّيّة رغم تطوّره الهائل في مجال العلوم والتكنولوجيا، إنها الوصول

قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: أَقْبَلَ على ما أُنْزِلَتْ به الكُتُبُ وأُرسِلَتْ به الرسُلُ.

ماذا يحتوي الدين؟

لقد بَيَّن اللَّهُ سبحانه للإنسان كلَّ شيء ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: 89].

وأخرج الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود قال: خطّ لنا رسولُ الله ﷺ خطاً ثم قال: «**هٰذه سبيل الله**»، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: «**هذه سُبُل متفرّقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: 53] ومعنى قوله ﷺ: «**هذه سبيل الله**» أي مثلٌ له في الاستقامة، وإحاطة الخطوط المعوجّة به التي هي أمثال السُبُلِ الشياطين من الجن والإنس، وما جاءوا به من فلسفات وتشريعات. فاللَّهُ بيّن له نَشْأَتَه، ومَصِيرَه، ودَلَّهُ على خالِقِهِ، وبَيَّن له دَوْرَه في الحياة ومُهِمَّتَه ووظيفته فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: 56 ـ 58]، فبَيَّن أن دوره في هٰذه الحياة الدنيا هو عبادةُ اللَّه، فاللَّهُ هو الرب الخالقُ المَعْبُودُ؛ والإنسان عَبْدٌ مخلوقٌ لِلَّه فوجب عليه أن يَعْبُدَ خَالِقَه، وأول العبادة المعرفة، فإذا عرف أن ربه خالق عظيم متصف بكل كمال ومنزّه عن كل نَقصَ، وأنه الرب المعبودُ، وجب ان يخضع له ويُطيعه فيما أمر ونهى، ويشكره على نعمه التي أغدق بها عليه، ويتّبع هُداه الذي أنزله على رسله، ولا ينساق وراء صيحات الشياطين من الجن والإنس، ولا يتّبع هواه وشهواته لكي لا يضيع ويضلّ ويهلك.

أهمية الدين في الحياة

تُرى لو لم يُنْزِلُ اللَّهُ الدينَ، ما الذي يوضّح للإنسان طريقه في الحياة وغايته، ويبيّن له دوره فيها، ومصيره ومستقبله؟ وما الذي يضع للإنسان القواعد الأخلاقية السليمة الصحيحة؟ وما الذي يحدّد للإنسان سلوكه المستقيم؟ ويرسم له

طريقاً موصلاً إلى غاية لا عِوَجَ فيها، ويدفعه إلى السير في هذا الطريق القويم؟ ما الذي سينظم علاقته بربّه، وعلاقته مع نفسه، ومع أسرته وعائلته، والمجتمع من حوله؟ هل هي سلطة الحكم والقانون؟ أم الفلسفة؟.

أما سلطة الحكم والقانون فهي أمر لا بُدَّ منه لتنظيم شؤون الجماعة وتحديد علاقاتها، ولكنها لا تصلح وحدها لضبط سلوك البشر؛ لأن سلطانها على الظاهر وليس على الباطن، ودائرتها في العلاقات العامة لا في الشؤون الخاصّة، ومهمّتها معاقبة المسيء دون أن تستطيع مكافأة المحسن، كذلك فإن البشر في مقدورهم التحايل على سلطة القانون، وتطويع نصوصه لأهوائهم، والهرب من عقوباته، فالقانون وحده إذن عاجز عن أن يكون زاجراً عن الشرّ، ورادِعاً عن الجريمة والفساد، وهو أعجز أيضاً عن أن يكون دافعاً إلى الخير، أو باعثاً على حق، أو حافزاً على عمل صالح.

إذن فلا غِنى لسلطة القانون والحكومة عن سلطانٍ نازعٍ وازعٍ، يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حُرُماتِه، وقد تبيّن بالاستقراء التاريخي أنه ليس على وجه الأرض قُوَّةٌ تكافىء قوّة التَدَيُّن، أو تُدانيها في كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه.

والسرُّ في ذلك أن الإنسان يمتازُ عن سائر المخلوقات الحية بأن حركاته وتصرُّفاته الاختيارية تَنْبُعُ من عقيدته، فالعقيدة والإيمان هما المُوَجِّهان لتصرُّفات الإنسان الخارجية، والإنسانُ يُسَاق من باطنِهِ لا مِن ظاهره، وليست القوانين ولا السلطات الحكومية بكافِيَيْن وحدهما لإقامة مَدَنِيَّة فاضلة تُحْتَرَمُ فيها الحقوق، وتُؤَدَّى الواجباتُ على وجهها الكامل، فإنّ الذي يؤدِّي واجبه رَهْبَةً من السَوْط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يُهمِلَهُ متى اطمأنَّ إلى أنه سَيَفْلِتُ من سلطة القانون.

كذلك فإنه من الخطأ أن نظن أن في نشر التوعية والثقافة وحدها ضماناً للأمن والرخاء، إذا لم يكن هناك رادِعٌ ديني وتربية وتهذيب خلقي، تدفع الإنسان للعمل والأخذ بالتعاليم. إن هناك حلقةً مفقودة لم يتوصل الغربُ إليها في حضارته المادّيّة رغم تطوّره الهائل في مجال العلوم والتكنولوجيا، إنها الوصول

لى الحِسّ الداخلي الذي يُحرِّك تصرُّفات الإنسان، وهذا الحِسّ لا يربّيه شيء إلا لدين الصحيح، إنه الشعور بالإيمان بالخالق ورقابته الدائمة، والخوف من عقابه، والرجاء في ثوابه، وإن التقدُّم العلمي الهائل هو سِلاحٌ ذو حَدَّيْن، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بدّ في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي ووازع ديني يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض.

فشل الفلسفة في بناء الإنسان الصالح

إذا تتبّعنا تاريخ الفلسفة ومذاهبها القديمة والوسيطة والمعاصرة، نجد أولاً أنّ لكل فيلسوف مذهباً، وكلُّ مذهبٍ له مقياسٌ، وآراءٌ، ونظرياتٌ متناقضة، فأية فلسفة تلك التي يَتَّبعها الناس؟ أهي فلسفة المنفعة التي نادى بها (وليم جيمس)؟ أم فلسفة اللذَّة التي نادى بها (أريستيب) و(أبيقور)؟ أم فلسفة القوّة التي نادى بها (نيتشه)؟ أم فلسفة الواجب التي دعا إليها (كانت)؟ أم فلسفة الإلحاد التي دعا إليها (ماركس)؟

ولقد أخطأ الفلاسفة ثانياً حينما صَنَّفُوا أنفسهم فوق رتبة البشر، وأعطوا أنفسهم حق التشريع والتنظير وإصدار الأحكام؛ لأنهم بذلك تخطَّوْا حدودهم البشرية، فالتشريع ليس من حقّ الإنسان المحدود التفكير، وإنما هو للَّهِ وَحْدَهُ خالِقِ البَشَرِ، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]. وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [الأنعام: 62]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: 70]. وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: 88].

وأخطأوا ثالثاً عندما خاضوا في أمور الغَيْبِ بغير علم ولا سلطان أتاهم، وأطلقوا أحكاماً خاطئة مخالفة للصواب، بينما أَرْسَلَ اللَّهُ وَحْياً من عالم الغيب يخبر بما فيه من حقائق.

وقد تَتَبَّعَ حُجَّةُ الإسلام الإمام الغزالي الفلاسفة وأبطل مذاهبهم، وصنّف في ذلك كتباً منها: «مقاصد الفلاسفة»، و«تهافت الفلاسفة»، و«المنقذ من

الضلال»، قال في التهافت: (أما بعد: فإني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التمييز عن الأتراب والنُظراء بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات، والتوقي عن المحظورات، واستهابوا بتعَبُّدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون يتَّبعون فيها رهطاً يصدّون عن سبيل الله، ويبغونها عوَجاً، وهم بالآخرة هم كافرون... ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر).

وكان من أثر هذه الضربة المؤلمة التي وجهها الغزالي إلى الفلسفة أن ركدت، وأبعد الناسَ عنها ودعا إلى إحياء علوم الدين، فكان له أبعد الأثر في ردّ الأمة إلى دينها بعد أن كادت تضل في متاهات الفلسفة ونظرياتها المختلفة. وتوالى العلماء المسلمون في التحذير من الفلسفة، وبيان ضلال أصحابها، ومنهم: الفقيه المحدث المشهور عثمان بن عبد الرحمٰن أبو عمرو ابن الصلاح الشهرزوري الشافعي المتوفّى عام (643 هـ) الذي ذكر في فتاويه جواباً عن سؤال عن الفلسفة وأصحابها فقال: (الفلسفة أسّ السفه والانحلال، ومادّة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومَن تفلسف عمِيَت بصيرَتُه عن محاسِن الشريعة المطهّرة، المؤيَّدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومَن تَلَبَّسَ بها تعلُّماً قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأيُّ فَنٍّ أخْزَى مِن فَنٍّ يُعْمِي صاحبه، ويُظلِم قَلْبَه عن نُبُوة نبيّنا محمّدٍ ﷺ...)

5 ــ البارىء

لما كان الخَلْقُ صادراً عن حكيم رشيد، كان لا بُدّ أن يأتي أيُّ مخلوق له في ذروة الكمال للغاية التي أُعِدَّ لها، ومتى كان كذلك كان هٰذا المخلوق مُبَرَّءاً من أي نقص عن مرتبة الكمال بحسب الغاية التي أعدّ لها، ومتى كان المخلوق مُبَرَّءاً من النقص المذكور، كان خالقُه هو البارىء له، ومِن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (البارىء).

و(البارىء): مأخوذ من البُرْءِ، وهو خلوص الشيء عن غيره، وفاعل البُرء في الخلق هو الذي جعل المخلوقات كلَّها بريئة وخالصة من التنافر المُخِلّ

بالنظام، فهو أدلّ على كمال الخلق من لفظ الخالق، فالله سبحانه هو الخالق البارىء. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: 24]. وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط.

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رحمهُ الله في معنىٰ هٰذا الاسم في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (البارىء هو الذي خَلَقَ الخَلْقَ لا عَنْ مِثال، ولٰهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ـ أي: ما فيه حياة ـ ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلّما تُستعمل في غير الحيوان، فيُقال: بَرَأَ اللَّهُ النَسَمَةَ، وخَلَقَ السمٰوات والأرضَ).

وقال حُجَّةَ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: في تفسير الأسماء الثلاثة: الخالق البارىء المُصوِّر: (قد يُظَنّ أن هٰذه الأسماءَ مُترادِفَةٌ، وأن الكُلَّ يرجع إلى الخلق والاختراع. ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يَخْرُجُ من العَدَم إلى الوجود فيفتقر إلى التقدير أوّلاً، وإلى الإيجاد على وِفْق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً، واللَّهُ تعالى خالقٌ من حيث إنه مُقَدِّرٌ، وبارىء مِن حيث إنّه مخترعٌ مُوجِدٌ، ومصوِّرٌ من حيث إنه مرتِّبٌ صُوَرَ المخترعاتِ أحسن ترتيب).

خلق الإنسان

من ينظر في القرآن يلاحظ أنه قد ورد فيه أن الإنسان مخلوق من تراب في موضع، وفي موضع آخر مخلوق من طين، وهنالك آية تقرر أنه مخلوق من حمأ مسنون، بينما تقرر آية أخرى أنه من صلصال كالفخار، وآية ثالثة تقرر أنه مخلوق من ماء دافق...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: 5].

وقال أيضاً: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7].

وقال أيضاً: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 33].

وقال أيضاً: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمٰن: 14].

وقال أيضاً: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: 5 ـ 7].

فخلق الإنسان من التراب فيه إشارة إلى الأصل الذي ينتمي إليه الإنسان، الذي لم يخلق من العدم المحض. فالمرحلة الأولى لخلق الإنسان كانت من التراب، ثم المرحلة الثانية من الطين، أي: التراب الممزوج بالماء، ثم الحمأ المسنون أي الطين المسود المنتن، الذي تحول إلى صلصال كالفخار، وقد ذكر ابن عباس أن الصلصال: هو التراب اليابس والفخار هو: الطين اليابس.

هذا تطور خلق البدن، فإذا بدأ هدم البدن فإنه ينهدم تدريجياً من آخر مرحلة وهي الصلصال، إلى أول مرحلة وهي التراب، مروراً بمرحلتي الحمأ المسنون والطين. كما قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: 55].

فإذا فارقت الروح البدن، تحول جسم الميت إلى صلصال كالفخار، الذي يحرق حتى يتحجر. وكما أن الفخار إذا نقرته بإصبعك أحدث صوتاً، كذلك الأمر فإن بدن الميت إذا نقرته أحدث صوتاً. فإذا دفن هذا البدن، بدأ في الفناء على التتابع بحيث يعود حمأً مسنوناً، ثم يتبخر الماء من الطين فيعود البدن تراباً. إن العناصر الأولية للبدن الإنساني تشبه منجماً صغيراً، يشترك في تركيبته حوالي 22 عنصراً، أهمها: الماء الذي يأخذ نسبة عالية، وهذه العناصر جميعها موجودة في تراب الأرض، لكن من الملاحظ أن مكونات التراب تتعدى مائة عنصر، لم يظهر في الأرض منها أكثر من 22 عنصراً.

وبعد أن خلق الله تعالى آدم وحواء أصبح بقية البشر يأتون على نظام واحد (من ذكر وأنثى) أي: من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب.

الصلب والترائب

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: 5 ـ 7].

هذه الآيات تحض الإنسان على التأمل والتفكير والبحث في أصل المادة التي خُلق منها وفي مصدرها. فهو قد خُلق من ماء مندفع، مكانه بين العمود الفقري وعظام الصدر.

وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الجنين يتكون من مني الرجل الذي يخرج من الخصيتين، ويتحد ببويضة الأنثى التي تتكون في المبيض، كما بيّنت هذه الدراسات أن أصل الخصيتين والمبيض من حدبة تناسلية لدى الجنين، موجودة بين خلايا العمود الفقري وخلايا عظام الصدر، بعد ذلك تبدأ الخصيتان بالنزول تدريجياً حتى تستقرا في موضعهما النهائي خارج الجسم، في أواخر الشهر السابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض الأنثى ليصل إلى موضعه النهائي في هذا الشهر.

وقد كشف علم الطب الحديث أن تغذية الخصيتين والمبيض بالدماء والأعصاب، إنما تأتي من بين الصلب والترائب، مكان نشأتها الأولى.

ظلمات ثلاث

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: 6].

والظلمات الثلاث التي وردت في الآية، رأى علماء التفسير أنها ظلمة البطن والرحم والمشيمة التي هي كيس يغلف الجنين. وقد ذكر الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس ـ لبنان ـ رحمه الله أن بويضة الأنثى تتكون في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الألبوميني، ثم تخرج البويضة من المبيض إلى ظلمة عنقه، وراء الرحم مباشرة حيث يصل إليها الحيوان المنوي ليلقحها وينزلا معاً إلى ظلمة الرحم. لكن علم الأجنة الآن يقرر معلومات أدق حول هذه الظلمات:

فالجنين يكون في بطن أمه محاطاً بثلاثة أغشية، لكل منها دوره الخاص به:

ـ **فالغشاء الأول (غشاء السلي)** أو الأمينون، وهو الغشاء الباطن، وهو عبارة عن كيس يحتوي على سائل يقوم بتغذية الجنين وحمايته من الصدمات ويسمح له بالحركة، ويحتفظ له بالحرارة الثابتة.

ـ **الغشاء الثاني (غشاء الكوريون)**، وينحصر دوره في نقل الأغذية والأكسجين من الأم إلى الجنين، كما ينقل ثاني أوكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى الأم.

ـ **الغشاء الثالث (الغشاء الساقا)**، الذي يحيط بالغشاء الثاني، ويتكون من الغشاء المخاطي المبطن للرحم، وهو رقيق إلا أنه ينمو نمواً سريعاً بتأثير هرمون الحمل.

فهذه الظلمات الثلاث التي أشار إليها القرآن، والتي لم يكتشفها العلم إلا مؤخراً.

الأمشاج

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: 2].

﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ۝٢﴾: فسرها ابن عباس ﷺ بأنها مختلفة الألوان.

أما ابن كثير فإنه يذكر أن ﴿أَمْشَاجٍ ۝٢﴾ تعني: أخلاط، والمشج والمشيج: الشيء المختلط بعضه ببعض.

ومن المعلوم أن الأمم القديمة لم تكن تعلم شيئاً عن حقيقة بداية خلق الجنين وتكوينه في رحم أمه، حتى إن الأمم ذات الحضارة الراقية آنذاك، كاليونان مثلاً، لم تكن معلوماتهم في هذا الموضوع إلا تصورات ساذجة. وعند اختراع المجهر تمكن العلماء من اكتشاف مني الرجل وبويضة المرأة. وفي عام 1875 م اكتشف الإنسان أن الجنين يتكون من تلقيح الحيوان المنوي للبويضة. وبعد ذلك

توالت الاكتشافات لتبين أن هذا الجنين هو خليط متساوٍ من امتزاج الحيوان المنوي والبويضة. ثم في العام 1909 م عرف الإنسان الكروموزومات وانقسامها وخصائصها. وفي عام 1912 م تمكن العالِم (مورجان) من اكتشاف الجينات وعملها أي: الخلية الأمشاج. والأمشاج هي: الأخلاط المؤلفة من ماء الرجل وماء المرأة. فبعد عملية التلقيح يبدأ العمل المشترك لتكوين وبناء الإنسان الجديد، وذلك بين بويضة الأنثى والحيوان المنوي للذكر.

فيمشج الشريكان كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط النووي (الكروموزومات)، وما فيها من الخلق المخلَّقة (الجينات) التي خلقها الله تعالى، عبر الأجيال، من الجدود والآباء إلى الأبناء والأحفاد. ومن هذا الاختلاط تتكون النطفة الأمشاج.

وهذه الجينات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان، فهي تحتوي الخصائص الفردية، والأحوال النفسية، والألوان، والأجناس. وهي من الدقة بحيث لو جمعت جينات البشر جميعاً في مكان واحد لكان حجمها أقل من حجم (الكشتبان).

مراحل تطور الجنين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: 5].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12 ـ 14].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ

فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: 36 ـ 40].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: 17 ـ 19].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: 20 ـ 22].

يذكر ابن كثير أن النطفة تلتصق بالرحم وتمكث أربعين يوماً، يضاف ما يجتمع إليها ثم تنقلب علقة حمراء، فتمكث أربعين يوماً ثم تستحيل فتصير مضغة أي: قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط. ثم يتشكل منها: رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء. وقد أجمع المفسرون على أن المضغة المخلقة هي التي تكون خلقاً سوياً، بينما غير مخلقة تعني: ما دفعته الأرحام وألقته قبل أن يكون خلقاً سوياً. وبعد الأجل المسمى يخرج طفل ضعيف في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله. ثم يعطيه المولى القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به، ويحنن والديه في آناء الليل وأطراف النهار. وبعد ذلك يبلغ أشده من القوة، وعنفوان الشباب، وحسن المنظر. فبعض البشر يموتون خلال تطور حياتهم، والأقلون يصلون إلى الشيخوخة والهرم، وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقض الأحوال من الخرف، وضعف الفكر.

إن علم الأجنة في عصرنا الحاضر قد تمكن من اكتشاف المراحل المتتابعة التي يمر بها الجنين وقد حدد هذه الأطوار بما يلي:

أ ـ مرحلة النطفة التي أطلقت على ثلاثة أشياء:

1 ـ نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية للذكر، والتي تحمل الملايين من حيوانات الذكورة والأنوثة. وأن هذا المني هو مصدر تحديد جنس الجنين، كما ذكرنا.

2 ـ نطفة الأنثى وهي البويضة.

obeikandl.com

3 ـ النطفة الأمشاج التي يتكون منها الجنين، وهي المختلطة بماء الرجل وماء المرأة أي: البويضة الملقحة. لقد أثبت علم الطب الحديث أن بويضة المرأة تلقح من قبل حيوان منوي واحد، وهو الذي يتمكن من اختراق غشائها. فإذا تم ذلك، أفرز هذا الحيوان مادة خاصة تُحدث تغيرات بيولوجية داخل البويضة من شأنها منع كل حيوان منوي آخر من اختراقها.

وفي اليوم التالي للإخصاب، تنقسم الخلية المخصبة لينجم عنها البلاستوبيد. وبعد أن كانت الخلية المخصبة تحتوي على مجموع كروموزومات الحيوان المنوي والبويضة بشكل منفصل، فإن الخلية البلاستوبيدية تحتوي على 22 زوجاً من الكروموزمات وزوج واحد من الكروموزومات الجنسية. ومنذ هذه المرحلة فإن خلايا الجنين تحوي نفس عدد الكروموزومات التي تحتويها الخلية الإنسانية الناضجة.

هذه النطفة الأمشاج تتحول إلى كرة جرثومية، لها خلايا تمكنها من التعلق بجدار الرحم الذي هو القرار المكين، حيث يغور بين عظام الحوض التي تحميه من التأثر باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات ورجّات وتأثيرات.

٢ . مرحلة العلقة

وتبدأ منذ اليوم السابع للتلقيح. في هذه المرحلة تفقد الكرة الجرثومية شكلها المستدير، لتأخذ شكل الدودة المستطيلة حيث يتشابه المظهر الخارجي للجنين مع الدم الجامد الغليظ.

٣ . مرحلة المضغة

في الأسبوع الرابع تظهر الكتل البدنية الأولى على هيئة خلايا متلاصقة وظيفتها تكوين اللحم. أما شكلها فيكون كقطعة لحم ممضوغة تبدو آثار الأسنان عليها.

ومن المضغة المخططة المخلقة بما تحوي من الكروموزومات المختلطة

وجيناتها، يبدأ تكوين الأعضاء والأحشاء، كما يبدأ تكوين أغشية الحفظ والوقاية والتغذية من الخلايا المحمية غير المخلقة، فيقوم قسم من الخلايا الجرثومية بتكوين مبادىء القلب، بينما يقوم قسم آخر منها بتكوين مبادىء المخ ومبادىء العمود الفقري، إلى جانب خلايا أخرى تقوم بتكوين مبادىء الأجهزة المختلفة، كالهضم، والتنفس والتناسل، إلى جانب آخر تقوم بتكوين العظام، كلٌ في دائرة اختصاصه.

٤ ـ مرحلة العظام

تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع فتظهر خلالها الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف.

٥ ـ مرحلة اللحم

أول علامة لها تكون بظهور عضلات الأطراف في الأسبوع السابع.

٦ ـ مرحلة الإنشاء والخلق

وهي فترة التصوير والتسوية والتعديل ونفخ الروح، فيتحول من خلق إلى خلق في أحسن تقويم. قال الرازي: (أي: جعلناه خلقاً مبيناً للخلق الأول، حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكماً، وسميعاً وكان أصماً، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة، لا يحيط بها وصف الواصفين). وجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية، لكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة المستعدة للارتقاء، بينما يبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان، مجرداً من خصائص الارتقاء والكمال التي يمتاز بها الإنسان.

6 ــ البَدِيع

إن جميع ما خلق اللّهُ قد خلقه على غير مثال سابق، وأبدعه إبداعاً تاماً، في صورته وشكله، وجميع جوانب تكوينه، فكان الخالق سبحانه هو المُبْدِع له

والمُصَوِّر، ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (البديع).

والبَدِيعُ معناه: المُبدِع، أي: الموجد للأشياء على غير مثال سابق، ودون إرشاد من أحد، قال الله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. وقد ورد في موضعين من القرآن الكريم فقط.

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (البديع هو الخالق المخترع، لا عَن مِثال سابق، فَعِيلٌ بمعنى: مُفعِل، أَبْدَعَ فهو: مُبْدِع).

أما حُجَة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، فيشرح هذا الاسم شرحاً آخر يتعلق بالخالق لا بالمخلوق في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» فيقول: (البديع: هو الذي لا عَهْدَ بمثله لا في ذاتهِ، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في كل أمر راجع إليه فهو البديع المطلق، وإن كان شيءٌ من ذلك مَعْهُودٌ فليس ببديع مطلق، ولا يليق هذا الاسم مطلقاً إلا لله تعالى، فإنه ليس له قَبْلٌ فيكون مثله معهوداً قبله، وكل موجود بعده فحاصل بإيجاده، وهو غير مناسب لموجوده فهو بديع أزلاً وأبداً).

قال الشاعر:

لا شيءَ مِثلُكَ في وَصْفٍ ولا ذات   يا خالقَ الأرض بِدْعاً والسماواتِ

فمثلاً: يخلق الله يومياً مئات الآلاف من الأشخاص، لا يشبهُ أيُّ واحِدٍ منهم الآخر، وكلُّ مخلوق لا شبيه له مِنْ قَبْلُ ولا مِن بَعْدُ، ولكل شخص بصماتٌ تختلف عن الآخر، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: 3، 4].

كذلك فإن كل عُضْوٍ في جسم الإنسان يوجد في مكانه المناسب، بحيث يتحقق أمران: **أحدهما**: القيام بوظيفة العضو. **والثاني**: الجمال بانسجام العضو مع الأعضاء الأخرى منظراً، وكُلَّما تحقَّق هذا الانسجام بنسبة أكبر كان الجمالُ أروع وأبدع.

لقد خلق اللَّهُ فَمَ الإنسان في مكان شريف من جسمه، وهو الرأس، وجعل له وظيفتين: إدْخال الطعام والشراب، ووظيفة الكلام، بينما جعل مخرج الطعام في أسفل جسمه، ولنتصوّر أنه وضع الفم في مكان المخرج، والعكس، فكيف يكون وضع الإنسان حين ذلك؟ إن المتأمل في خلق الإنسان يجد بِدْعاً في الصنع، واللَّهُ تعالى دعا الإنسان إلى التأمل في نفسه وفي الكون من حوله ليتعرّف على خالقه وعلى حكمته، وعلمه، وبديع صُنْعه، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: 21] لقد اقتضت حكمة الله وبديع صنعه أن يضع الفم الذي هو مدخل الطعام الطيّب والفاكهة تحتَ الأنف الذي يَشُمُّ رَوائِحَ الطعام الطيِّب والفاكهةَ، فيحرّض على كثرة العُصارات المَعِدِيَّة، ويدفع إلى فتح الشهية، أما مكان خروج الروائح الكريهةِ والأصواتِ المؤذيةِ والمناظِرِ البَشِعَةِ، فقد جعله الله في أبعد مكان عن العين والأنف والأُذن، وصدق اللَّهُ العظيم حيث يقول: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التين: 4] فما مِن عُضوٍ في الإنسان إلا وهو في مكانه المناسب في حكمة وإحكام: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾.

ونُريد هنا أن نبيّن آيةً أخرى في الكون تدلّ على عظيم صُنْع البديع، وهي دور الجبال في الأرض، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ: 6، 7]. نلحظ من خلال الآية أن هناك دوراً للجبال مُعَيَّناً أيّده العلم الحديث بكشوفاته بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن، وهٰذا من الإعجاز العلمي في هذه الآية.

فإذا ذهبنا إلى التطبيق الجغرافي لما جاء في هٰذه الآية، نجد إعجازاً لا يملك المَرءُ أمامه إلّا الإيمان بالله والركوع من خشيته، وإدراك قدرته وبديع صُنْعه، والتصديق برسوله وكتابه. فقد أكّد العلمُ الحديث عن امتدادات جذور الجبال تحت القِشْرَة الأرضية؛ لأنه وُجِدَ بالبحث العلمي أن سُمْكَ القشرة الأرضية تحت القارّات 5 كلم، وتتخذ الجبال شكل الأوتاد ووظيفتها، فالجبال ماسكات للقارّات في الصخور السائلة التي توجد تحت القشرة الصلبة، ولولا جذور هٰذه الجبال لَطَفَتِ القِشْرَةُ وسَبَحَتْ فوق صخور الباطن (SIMA) اللَّيِّنة، ولَانْعَدَمَ توازُنُها وثباتُها فوقها، وقد عُرِفت هذه الحقائق عن طبيعة الجبال

ووظيفتها سنة 1956 فقط، أي: بعد إشارة القرآن الكريم لها بحوالي 1376 سنة.

ولولا انغراس الجبال في مواد السيما، لتحرّكت الجبال والقارّات من أماكنها، نظراً لضآلة كثافتهما، ولو طَفَتِ القارّات وسبحَت لاضطربت الأرضُ تحت أقدامِنا، ولاهتزّت بِنا.

تُرى من أين كان لمحمد ﷺ أن يأتي بهٰذه الحقائق العلمية الدقيقة عن طبيعة الأرض ودور الجبال فيها وذلك قبل حوالي 1400 سنة تقريباً، يوم كانت المعارف البشرية ضئيلة والاكتشافات العلمية بسيطة؟ لا شك أن هٰذا إخبار من عند الله الخالق العليم، الحكيم الخبير، المُبدِع، أوحى به بواسطة وحيه جبريل لرسوله محمدٍ ﷺ، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3، 4].

ونذكر مثالاً آخر في الكون من حولنا يدلّ على بديع صُنْع الله وحسن تدبيره وإحكامه لأمور خلقه، ألا وهُوَ التوازنُ التامُّ في علاقة المخلوقات مع بعضها في هٰذا الكون الرحيب، مِنْ ذلك: توازن الطيور مع الحشرات مع الإنسان مع الحيوان.

تظهر الحشرات في أواخر الربيع من كل عام، إما بتفقيس بيضةٍ وُضِعَتْ في العام السابق، أو من شرنقةٍ كانت تضمُّها في الشتاء، وفي الوقت الذي تتكاثر فيه الحشرات، تكون صغار الطيور قد خرَجَت من بيضها واحتاجت إلى الغذاء، فيجمع لها أبواها الحشرات بمقادير كبيرة من مطلع الشمس إلى مغربها، فينقص بذلك عدد الحشرات نقصاً بالغاً، ولولا ذلك لأصبحت الحشرات مشكلةً كبيرة للإنسان، ووباءً يعجز عن مكافحته؛ لأنها تتغذّى على النباتات، ولو تُرِكت لأكلت الأخضر واليابس، ولَتَسبَّبَ انقراض النباتات بموت الحيوانات التي تتغذّى على الأعشاب، مما يؤدّي إلى موت الحيوانات التي تتغذّى على اللحوم، وإلى افتقار الإنسان إلى أهم مَوْردَيْن لغذائه، وهما: النبات واللحوم، وبالتالي موته، ولأصبحت الأرض موتاً لا حياة فيها.

تُرَى مَن أبدع هذا التوازن العجيب في الجبال، وبين الحشرات والطيور والنباتات والحيوانات والإنسان؟ إنه البديع الخبير ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: 88].

7 ــ المُصَوِّر

معناه: الموجد للصُوَر، المركّب لها على هيئات مختلفة، المعطي لكل مخلوق صُورَةً تُميِّزُه عن غيره. وهو مأخوذ من التصوير، وهو التخطيط والتزيين، والمُراد: أنّه المُبْدِع للصُوَر والمُزَيِّن المُرتِّب لها. قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 24]. وقد ورد في القرآن الكريم في موضع واحد، ووردت صيغة الفعل في خمس مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: 64].

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هٰذا الاسم في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (المُصَوِّرُ: هُوَ الذي صَوَّرَ جميعَ المَوْجُودَاتِ وَرَتَّبها، فَأَعْطَى كلَّ شيءٍ صُورَةً خاصَّةً، وهَيْئَةً مُنْفَرِدَةً، يَتَمَيَّز بها على اختلافها وكثرتها).

وقال الإمام حُجّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هٰذا الاسم في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (اللَّهُ تعالى خالقٌ مِن حيثُ إنه مُقَدِّر، وبارِئٌ مِن حيث إنه مُخْتَرِعٌ مُوجِد، ومُصَوِّرٌ من حيث إنه مُرَتِّب صُوَرَ المخترعات أحْسَنَ ترتيبٍ، ومثالُه: الإنسانُ، وهو أحد مخلوقاته).

ويقول الدكتور خالص جلبي في كتابه: «الطب محراب الإيمان» عن تصوير الإنسان في بطن أمّه: (إن نموّ الجنين في بطن أمه لا يمشي وفق تسلسلٍ واحدٍ،

فهو في مرحلةٍ يمشي باتجاهِ زيادةِ الخلايا فقط بدون تمييز أو تخصُّص، وهكذا تُصْبِحُ الخلايا أكثر عدداً، ولكنها كلُّها من شكل واحد، ثم تبدأ بعدها عملية التَخَصُّص، حيث تُفْرَزُ مجموعاتٌ لِتَتَخَصَّصَ في إيجاد عضوٍ مُعيَّن، وإذا ظهر هذا النسيج أو العضو، فإن له شخصيّته المُسْتَقِلّةِ ووظيفته المُحَدَّدة، وفي آخر المراحل الجَنِينيّة يميلُ الجنين باتّجاه زيادة الوزن، وإعطاء الرَّوْنَق الأخير للإنسان، حتى يخرُج للحياة في أجمل صورة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 5، 6]. ونتساءلُ هنا عن تلك الدِّقة العجيبة والرَّوْعَة المُدْهِشة في فعل المُسَرِّعات وتنظيمها أثناء خلق الإنسان وبعث الحياة فيه، إن مَنْحى المُسَرِّعات يمشي كما يلي: الأيام العشرة الأولى انقسام رهيب سريع في الخلية الإنسانية الأولى مع المحافظة على الحجم كما هو، ولا يحدُثُ شَيْءٌ سِوَى الانقسام، وهكذا يحدث ما يقرب من خمسين انقِساماً أو يزيد في الخلية الأولى، في رحلتها ضمن بوق الرحم بعد تلقيحها، لتصل إلى داخل الرحم وتلتصق بجدرانه وتُعَشِّشَ فيه، ولنتصوَّر تسلسل الأرقام (1 ـ 2 ـ 4 ـ 8 ـ 32 ـ 64 ـ 128 ـ 256 . . .) ثم ينعطف المُسَرِّع في تخصّص الخلايا وتشكُّل الأعضاء.

وهكذا يتخلَّق الإنسان وتتشكّل أعضاؤه وأجهزته في الأشهرُ الثلاثة الأولى، وكأننا أمام ورشةِ عَمَل أَدَقّ ما تكون، فهذه مجموعة خلايا تتخلّق منها العين، وتلك للأحشاء، وثالثة للأطراف. ثم إن الورشة نفسها لها مُهَنْدِسُون عُقَلَاءُ وعُمّالٌ فَنّيُونَ من أدقّ ما يكونُ؛ لأن باجْتِماعِ الخلايا يُوجَد النَّسِيج، وباجتماع الأنسجة يوجد العُضْو، وباجتماع الأعضاء يوجَد الجهازُ، فالمَعِدَةُ مثلاً تتكوّن من طبقاتٍ أربع، والطبقة الداخليّة المخاطيّة تقوم بعِدّة وظائف، فهي تُنْتِج حمض كلور الماء (HCl) لتهيئة الطعام للهضم، وبنسبة مُرَكَّزة حوالي 4 بالألف، كما أنها تَفرُز خميرة (الببسين) لهضم الطعام، وبالإضافة لذلك تفرز العامل الداخلي الذي يُعتبر بمثابة «إدارة الهجرة والجوازات» التي تعطي «تأشيرة دخول» للفيتامين (B_{12})، وإذا لم يحصل على تأشيرة الدخول هذه لم يمتص. وبالتالي حصل فقر الدم الخبيث الذي يُعتبر مُميتاً إذا لم يُعالَج.

والعَيْنُ مُكَوَّنةٌ مثلاً من ثلاث كُراتٍ تُغلّفُ بعضَها البَعْضُ، ففي الخارج الطبقة الصلبة الحامية، وهي التي تُرى مِنْ تَبارُزِ العَيْنِ الأَمَامِيِّ بالشكل الأبيض، وتُغلّف من الداخل طبقة أولى غنيّة بالأوعية الدموية هي طبقة المشيمية، ومن أقصى الداخل نرى نصفَ كُرة مسؤولة عن الإبصار، وفيها عشرة طبقات منضَّدة فوق بعضِها البعض، وإحدى تلك الطبقات هي المُسْتَقْبِلَة للنور، وفيها نوعان من مُسْتَقْبِلات الضوء، الأول: مختصّ بالنور العادي والضعيف، وهي العُصَيّات، والثاني: مختصة بالنور المركَّز والألوان، وهي مجتمعة في المركز، وهي المخاريط، وعَدَدُ هٰذه المستقبلات في العين الواحدة حوالي (140) مليون عصاة، وسبع ملايين مخروط، وبين الجميع تعاون وثيق في كلّ خلية، وبتخصُّصٍ مُحَدَّدٍ، وتتعاون هٰذه الخلايا مع بعضها لِتكوّن النسيج، ثم يتضافر عمل الأنسجة لتكوين الأعضاء، ثم تتعاون الأعضاء مع بعضها لتكوين الجهاز، ثم تتعاون هٰذه الأجهزة مع بعضها لتكوين الإنسان السوي، وأيُّ خلل بسيط في العمل معناه حدوث تَشَوُّهٍ مُرْعِب، ولْنتَصَوَّر لو أن طائفة من الخلايا أثناء انشطارها وُضعت في الفم مكان الشرج، أو العينان مكان الصدر، أو الدماغ مكان البطن، ماذا كان يحدث للإنسان؟ إن هناك مصوّراً خالقاً حكيماً بديعاً عليماً يتولّى عملية الخلق، ولم يحدث في تاريخ الخلق أن وقع خلل أو سهو أو خطأ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: 3، 4].

ثم ينعطف المُسَرِّعُ في اتّجاه ثالث حينَ يَسِيرُ الجنينُ في زيادة الوزن حتى يَصِلَ إلى رقم مقدّر نحو (3250 غ)، بعد أن كان وزن النطفة واحداً من مليار من الغرام، وهكذا ازداد وزن الإنسان ما بين مرحلة النطفة إلى مرحلة التخلُّق الإنساني الأخيرة 3000 مليار مرة.

ثم يخرج الإنسان من بطن أمّه مُجهّزاً بجميع الأجهزة التي تؤهّله للحياة، ويبدأ انعطافٌ جديدٌ في حياة الإنسان، وهي تكوين المعارف والمشاعر والأفكار وبناء النفس الإنسانية، ويتدرّج في معرفة العالَم من حوله، وكأن الحياة هي مرحلة استخدام هٰذه الأجهزة.

ثم تسير الحياة، والإنسان هو هو لم يتغيّر، ولكنه يتغيّر في كل لحظة، ذلك أن خلايا الإنسان تموت ليُولد غيرها، وتستمر عملية الهدم والبناء، فالكريات الحمر تتولّد من مصنع الكريات الحمر وهي: نقي العظام، والمقبرة التي تستقبل الخلايا الميتة هي: الطحال، ويكفي أن نعلم أن عشرة مليارات كريّة حمراء تموت في الساعة الواحدة ليولد غيرها، ومع ذلك لا يتغير شكل الإنسان وصورته وهيئته التي صوّره الله عليها، والتي لا يشبهه فيها أحد، أثناء حياته، وقبلها وبعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 6 ـ 8].

8 ــ الهادي

أي: المرشد لخلقه إلى ما فيه صلاحهم، فقد هدى خلقه بالعقل والتوفيق.

إن كل مخلوق في الكون مُهَيَّأ في التكوين العام إلى غاية أُعدَّ لها، وقد هداهُ الله إلى سلوك السبيل التي تؤدي به إلى الغاية التي أعدّ لها بالطبع والاستعداد، أو بالفِطرة والغريزة، أو بالميل والإرادة. والله سبحانه هو الذي خلق كل شيء وهَداهُ إلى غايَتِهِ. فَهَدَى الشجرةَ مثلاً إلى النماء والإثمار، وهدى الماء إلى السَيَلان والانحدار، وهَدَى الحيوانات على اختلاف أنواعها إلى اكتساب أرزاقها، وجعل ذلك في فطرتها وغريزتها، وهَدَى الإنسانَ إلى السَعْي والعمل بالإرادة والاختيار، فسبحان من خلق كل شيءٍ وهدى، ومِنْ هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الهادي).

وهو مأخوذ من الهداية، وهي الدِلالة، سواء كان ذلك بخَلْق الاستعداد الفِطري، أو عن طريق هِبَة الغرائز، أو عن طريق إقامة الأدلّة الكونية الصامتة، أو عن طريق إقامة الأدلّة الناطِقَة المُبَلِّغة على أَلْسِنَةِ الرُسُل، والمقصود من معنى اسم الله (الهادي): هو ما كان عن طريق خلق الاستعدادات الفطرية، وهبة الغرائز، فيكون معناه: المرشِدُ لمخلوقاته إلى الغايات التي أُعِدَّت لها بقضاء اللّه وقدره. ومنه قولُه تعالى في سورة طه حكاية لقولِ موسى عليه السلام في جوابه لسؤال فِرْعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ وقوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ

فَهَدَىٰ﴿٣﴾﴾ وقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ، في شرح معنى هذا الاسم في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الهادي: هو الذي بَصَّرَ عِبادَه وعَرَّفهم طريق معرفته حتّى أَقَرُّوا بِرُبُوبِيَّتِهِ، وهَدَى كُلَّ مخلوقٍ إلى ما لا بُدّ منه في بقائه ودوام وُجوده).

وقال الإمام حُجّةُ الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا الاسم في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الهادي: هو الذي هدى خواصّ عباده أولاً: إلى معرفةِ ذاته حتّى استشهدوا بها على معرفة ذاته، وهدى عوامّ عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته، وهدى كلّ مخلوق إلى ما لا بد منه في قضاء حاجاته، فهدى الطِفْلَ إلى التقام ثدي أُمّه عند انفصاله، وهَدَى الفَرْخ إلى التقاط الحبّ وقت خروجه من البيضة، وهدى النَحلَ إلى بناء بيته على شكل سُدَاسِي لكونه أوفق الأشكال لبدنه وأحواها له. والهُداةُ من العباد: هم الأنبياء والعلماء الذين أرشدُوا الخلق إلى ربّهم وإلى السعادة الأخروية وهدوهم إلى الصراط المستقيم).

هداية الطفل للرضاعة

لننظر إلى هٰذا الكون الكبير من حولنا، لنرى في الآفاق وفي أنفسنا الدلائل التي تدل على الهادي سبحانه وتعالى، ولنأخذ بعض الأمثلة على ظاهرة الهداية، ومنها: هداية الإنسان والحيوان الطفل عقب ولادته لالتقام ثدي أمّه، وامتصاصه بحركة فسيولوجية منتظمة دون سابق تعليم، فالجنين حين يكون في بطن أمه يتلقّى تغذيته عبر حبل السُرَّة، وبعد الولادة ينفصل عن أمه ليطلب الغذاء بنفسه، ولكنه بسبب صغر سنه وعجزه التام، وعدم وجود أسنان له وقلّة حيلته وإدراكه ومعرفته، يظل يرتبط بأمّه فترة سنتين، وهما فترة الرضاعة، وهي فترة هامّة من حياة الإنسان، يتلقى الطفل فيها الغذاء والحنان والسعادة، فهو بمجرّد خروجه من بطن أمه يبحث عن ثدييها بِنَهَم، وبمجرّد وضعه عليه يمارس الرضاعة بحركة امتصاص عجيبة يشارك فيها اللسان والخدّان والأنف، ويستطيع الرضاعة والتنفس خلالها دون أن يتعرض للاختناق بطريقة تحتاج إلى تعليم وتدريب وممارسة،

obeikandl.com

والمولود في هذه السن يكون غير قابل للتعليم والتدريب، فمن هداه لهٰذه الرضاعة؟ إنه الله الهادي سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: 3].

تقليب بيض الدجاج

خطر لعالم أن يَسْتَفْرِخَ البيض دون حَضَانَة دجاج، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلمّا جمع البيض ووضعه في جهاز التفريخ نَصَحَهُ فلّاح أن يُقلّب البيض؛ لأنه رأى الدجاج يفعل ذلك، فَسَخِرَ منه العالِم وأفهمه أن الدجاجة إنما تُقَلِّب البيض لِتُعْطِي الجزءَ الأسفلَ منه حرارة جسمها الذي حُرم منها، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يُشيعُ حرارَةً ثابتة لكلّ أجزاء البيضة، واستمرَّ العالِمُ في عمله حتى جاء دور الفَقْسِ، وفات ميعادُه ولم تفقس بيضةٌ واحدة، وأعاد التجربة، وقد استمع إلى نصيحة الفلّاح، أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة فصار يقلب البيض، حتى إذا أتى ميعاد الفقس خَرَجَت الأفراخ من البيض، وآخِر تعليل علمي لتقليب البيض، أن الفرخ حينما يُخلق في البيضة تَرْسُب الموادُّ الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي بدون تحريك. ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير، ولهٰذه الهداية الكاملة الأهمية الكبرى في عملية بقاء الدجاج في العالَم؛ لأنه يعلم تماماً ما يجب أن يفعله، ولا بُدّ أن ذلك فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج. فمن الذي هدى الدجاجة لهٰذا التقليب؟ هل ترى بأعينها فرخَها داخل البيضة وترى غذاءه؟ لا بُدَّ أنها ظاهرة الهداية التي تدلّ على الهادي سبحانه وتعالى.

عودة الطيور إلى ديارها

تهاجر الطيور بشكل جماعي وهي طائرة آلاف الكيلومترات بحثاً عن درجة الحرارة المناسبة والغذاء، وتعود لأوطانها دون دليل للطيران، وهي لا تضلّ طريقها في هٰذا الطيران، فمن السخف أن نقول إن عندها حاسة اتّجاه، أو غريزة العودة إلى الديار، هذه فقط مجرّد كلمات، ولا توضح شيئاً نريد أن نعرف بالضبط ما هي الحواس التي تستخدمها الطيور لمعرفة طريق الهجرة، وطريق العودة، وكيف تستطيع أن تعلم بأي اتّجاه تسير، وهي لم تتعلّم في معاهد الطيران، ولا تعرف القارّات ولا الخطوط الجوية بين القارات؟

فمثلاً يقطع الكروان الذهبي من أقصى الأرض شمالاً إلى أقصى الجنوب مسافة ثمانية آلاف ميل عابراً الأمريكتين، من جهة الشرق، ويعود لوطنه من جهة غرب القارّتين قاطعاً المسافة نفسها من طريق غير الطريق الآتي منها.

ويقطع جلم الماء العظيم من شمال المحيط الأطلسي إلى جنوبه ثم يعود من طريق أخرى إلى دياره نفسها.

ويقطع الخَرْشَنه، ويُسَمَّى: بطل الطيور المهاجرة مسافة أربعة عشر ألف ميل وأكثر عبر القارّات، ليعود لموطنه الأصيل دون أن يضل طريقه، ويهاجر طائر المِمْراح من كندا إلى الأرجنتين بمسافة قدرها سبعة آلاف ميل.

تُرى من هَداها في طريقها إلى مهجرها وموطنها؟ إنه الله الهادي ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19].

هداية الله للإنسان

أنواع هداية الله

قال الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المفردات في غريب القرآن»:

هداية الله عزّ وجلّ للإنسان على أربعة أوجُه:

الأول: الهداية التي عمّ بجنسها كلّ مُكلَّف، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، بل عمّ بها كلّ شيءٍ حسب احتماله، كما قال ﷻ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50].

الثاني: هداية الناس جميعاً إلى الحق بالوحي وبإرسال الرُسُل والأنبياء وبإنزال الكتب كالقرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: 24].

الثالث: التوفيق الذي يخُصُّ به من آمن، وهو المقصود بقوله ﷻ: ﴿زَادَهُمْ

هُدَىً﴾ [محمد: 17] وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ۖ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: 43].

هداية التبيين والتوضيح

لقد هَدَى اللَّهُ سُبْحَانه وتعالى الإنسان حين خلقه وأنزله إلى الأرض، لكيلا يتيه في الأرض ويخبط خبْط عشواء، فبَيَّنَ له طريق الخير وطريق الشر، قال تعالى في قصة خلق آدم: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: 38 ـ 39]. وقد زَوَّدَ اللَّهُ الإنسانَ بعَقْلٍ حازمٍ مُدْرِكٍ يُمَيِّزُ به الخيرَ من الشرِّ، والحقَّ من الباطل، وأرسلَ الرُسُلَ، وأنزلَ عليهم الكُتُبَ لكي يُبَيِّنُوا له الطريق المستقيم، فكُلُّ إنسانٍ قدْ هُدِيَ هِدَايَة التبيين والتوضيح، وبهذا أُقيمت الحُجَّةُ على جميع الخلق، قال الله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: 165]. وجعل هذه الدنيا دار امتحانٍ وابتلاءٍ، والآخرة دار حسابٍ وجزاء، فمن آمن في هذه الدنيا واتَّبع هُدَى الله، ورَضِيَ بدينِ الله عن قناعة وطواعية، وخضع لمولاه ولم يتكبَّر عن طاعة الله ولم يتجبَّر على خلقه في الأرض، كان في الآخرة من أهل النعيم والرضوان المُقيم، وأمَّا مَن كَفَرَ بربِّه واستكبر عن عبادته ورفض الخضوع لخالقه والانصياع لأوامره، واتَّبع شهواتِهِ وأهواءَهُ، وانحرف عن الصراط المستقيم، فهو في الآخرة من الخاسِرين والعذاب الأليم خالداً مُخلَداً فيها.

أسباب الضلال

تُرَى ما هي أسباب الضلال؟ لقد بيَّن الله لنا في القرآن الكريم كيف يضلّ الإنسان ولا يهتدي فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ [الأعراف: 146].

لقد خلق اللَّهُ الإنسانَ على فطرة سَوِيَّة سَليمة خالية من الانحرافات والأمراض النفسية والشذوذات، بحيث تنسجم مع الحقّ وتتقبَّله إذا عُرِض عليها، ولكن الإنسان قد تَتَشَوَّهُ فِطْرَتُه بدوافع من إيحاءات الشياطين ووساوسهم وتضليلهم، فيستجيب لهم، ويطاوعهم، ويَجدُ في ذلك لذّةً وتحقيقاً لرغباته وشهواته المزروعة بداخل كل إنسان، فَيَدْفَعُهُ حُبُّ الهوى وَالشهواتِ إلى إغماض عينه عن الحق، والاستكبار عليه، والتكذيب به بعدما رآه واتّضح له، وقد يحارِبُه إذا أظلم قَلْبُه بالكفر والمعاصي كثيراً. فهذا وأمثاله كذّبُوا وكفروا، واستكبرُوا بغير الحقّ، إنّهم يَرَوْنَ آياتِ اللَّهِ الدالّة على ألوهيّته في الكون، ولكنهم يُصِرُّون على عدم الإيمان بها؛ لأن قلوبَهم أظلمت وتغلّفت بغلاف الكفر، فلم تعد ترى نور الحق، ولم يعودوا يتقبّلون هداية الله سبحانه وتعالى.

وأما أصحابُ الفِطَرِ السَوِيَّة السليمة الذين لم تنحرف نفوسهم بضلالات الشياطين، والذين لم يستجيبوا لنداءاتهم، بل كبحوا جماح أنفسهم، ولم ينقادوا لشهواتهم وأهوائهم، بل جاهدوها كما أُمِروا فأولئك هم المحسنون: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 37 ـ 41].

أنواع النفوس الإنسانية

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به من الهُدَى والعِلم كَمَثَل الغَيْثِ الكثيرِ أصاب أرضاً، فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلَت الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانَتْ منها أجادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها الناسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وَزَرَعُوا، وأصابت منها طائفةً أخرى إنما هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ مَن فقِهَ في دينِ اللَّهِ ونفعه ما بعثني اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لم يرفع بذلك رأساً ولم يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ به**». قال الحافظ ابن حَجَر في كتابه: «فتح الباري شرح صحيح

البخاري»: (قِيعانٌ: جمعَ قاع، وهو: الأرض المستوية المَلْسَاءُ التي لا تنبتُ). ونقل عن القرطبي في شرحه لهٰذا الحديث قال: (ضَرَبَ النبيُّ ﷺ لِما جاء به مِنَ الدينِ مثلاً بالغيثِ العام الذي يأتي الناسَ في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حالُ الناسِ قبل مَبْعَثِه، فكما أن الغيثَ يُحْيي البلدَ المَيتَ فكذا عُلومُ الدين تُحْيي القَلبَ المَيْتَ، ثم شَبَّهَ السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغَيْثُ على ثلاثة أنواع، فمنهم: العاملُ المُعَلِّمُ، فهو بمنزلة الأرض الطَيِّبَة شَرِبَتْ فانْتَفَعَتْ في نفسها وأنْبَتَتْ فَنَفَعَتْ غيرَها. (والنوع الثاني): الجامع لِلعِلْم المستغرق لزمانِه فيه، غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يَتَفَقَّه فيما جمع، لكنّه أدّاه لغيره، فهو بِمَنْزِلَةِ الأرض التي يَسْتَقرُّ فيها الماءُ فَيَنْتفِعُ الناسُ به، وهو المُشَارُ إليه بقوله ﷺ: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مقالتي فأدّاها كما سَمِعَها، فَرُبَّ مُبَلَّغ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**». (والثالث): من يَسْمَعُ العِلْمَ فلا يحفظه ولا يعملُ به ولا ينقله لغيره، أو يسمع لهُدَى فلا يَتَقَبَّلُهُ لقسوة قلبه، واسوداده بالكفر والمعاصي، فهو كمثل الأرض لصمّاء المَلْسَاء المُسْتَوِيَة التي يَمُرُّ عليها الماءُ فلا تَنْتَفِعُ به، وأشير إليه بقوله ﷺ: «**ولم يَقْبَل هُدَى اللَّهِ الذي جئتُ به**».

9 ـ المُبْدِىءُ

لما كان جميع ما نشاهده في الكون من حولنا مخلوق لله وقد جعل له أجلاً مسمّى ينتهي وجوده عنده، إما بالموت، أو بتفريق أجزائه وتشتيت وحدته، ثم يبعثُه الله تعالى مرّة ثانية على سبيل الإعادة للجزاء والحساب أو غير ذلك، كان الخالق هو الذي بدأ خلقه، وهو الذي يُعيدُه، ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (المُبْدِىءُ).

ومعنى المبدىء: المُوجِد مِن العَدَم ابتداءً من غير مِثال. وهو مأخوذٌ مِن أبْدَأَ، بمعنى فعل الشيء ابتداءً، أو مِنْ أبْدَى بمعنى أظْهَرَ، فاللَّهُ سبحانه وتعالى هوَ المُنْشِىءُ للمخلوقات ابتداءاً، والمُظْهِر لها من العَدَمِ إلى الوجود.

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجَزَري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذ الاسم: (المُبْدِىءُ: هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداءً من غير سابق مِثال).

وقال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هٰذا الاسم في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنى»: (المُبْدِىء معناه: المُوجِد، لكن الإيجاد إذا لم يكن مَسْبوقاً بمثله سُمّي: إبْداءً، وإذا كان مسْبوقاً بمثله سُمّي: إعادة. واللَّهُ تعالى بدأ خلق الناس، ثم هو الذي يُعيدُهم - أي: يحْشُرُهم - والأشياءُ كلُّها بدَتْ منه، وإليه تعودُ، وبه بدأتْ، وبه تعود) انتهى كلام الإمام الغزالي.

دليله من القرآن الكريم

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم على صيغة الفعل (12) مرة منها قول اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: 12، 13]، أي: مِنْ قُوَّته وقُدرته التامّة يُبْدىءُ الخلق ويُعيدُه، كما بدَأَه بلا مُمانع ولا مُدافع. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: 27]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: 19، 20]. أرشد اللَّهُ عباده إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المُشاهدة من خلْق اللَّه الأشياء: السمٰوات وما فيها من الكواكب النيِّرة الثوابت والسَّيَّارات، والأرضين وما فيها من وِهادٍ وجبال، وأودية وبرارِي وقِفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كلّ ذلك دالٌّ على حُدُوثها وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن فيكون. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: 7 - 9].

دليله من العلم الحديث

جاء في مقالة علمية تحت عنوان: «النتيجة الحتمية» كتبها العالِم الكيميائي الرياضي الأمريكي (جون كليف لاندكوثران) رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة

«دولث»، وهي المقالة (4) ضمن كتاب: «الله يتجلّى في عصر العلم»، الذي جمعه الصحفي الأمريكي (جون كلوفر مونسما) وترجمه للعربية د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، وراجعه وعلّق عليه د. محمد جمال الدين الفندي: يقول اللورد كيلفن، وهو من عُلماء الطبيعة البارزين في العالم: (إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرُك إلى الاعتقاد بوجود الله)، ثم يشرع جون في عرض مقالته، وهي تتلخص بما يلي:

إن التطوّرات الهامة التي تمّت في جميع العلوم الطبيعية، خلال السنين المائة الأخيرة، بما في ذلك الكيمياء[٢٠] قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في دراسة المادّة والطاقة، وعند استخدام هٰذه الطريقة تُبذل كل الجهود للتخلُص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة، التي تجعل النتيجة التي نصل إليها راجعةً إلى محْض الصُدْفة.

ثم أسْهب في الأمثلة العلمية عن طريق الكيمياء التي تُثْبت أنّ سلوك أيّ جزء من أجزاء المادّة مهما صغُر، لا يُمكن أن يكون سلوكاً عشوائياً ناجماً عن المصادفة، بل كلّ شيءٍ يسيرُ وفْق قانُونٍ يُهيْمنُ على سلوكه.

ثم قال: فهل يتصوّرُ عاقلٌ أن يُفكّر أو يعتقد أنّ المادّة المجرّدة من العقْل والحكْمة قد أوْجدَتْ نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوْجدتْ هٰذا النظام وتلك القوانين، ثم فرضتْهُ على نفسها؟ لا شكّ أنّ الجواب سوف يكون سلْبياً.

وتدُلُنا الكيمياء على أنّ بعْض الموادّ في سبيل الزوال أو الفناء، ولكنّ بعضها يسيرُ نحو الفناء بسُرْعةٍ كبيرة، والآخر بسُرْعةٍ بطيئة، وعلى ذلك فإنّ المادّة ليستْ أبديّةً، ومعنى ذلك أنها ليست أزليّةً، إذن لها بداية.

وتدلُّ الشواهدُ من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادّة لم تكن بطيئة ولا تدريجية، بل وُجدتْ بصورةٍ فُجائيّة.

وتستطيعُ العلومُ أن تحدّد لنا الوقت الذي نشأتْ فيه الموادُّ، وعلى ذلك فإنّ هٰذا العالم المادّيّ لا بُدّ أن يكون مخلوقاً، وهو مُنْذُ أن خُلق، يخْضع لقوانين

وسُنَنٍ كَوْنِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، ليس لعُنْصر المصادَفةِ بينها مكانٌ.

فإذا كان هٰذا العالَمُ المادِّيُّ عاجزاً عن أن يَخْلُقَ نَفْسَهُ، أو يُحَدِّدَ القوانينَ التي يَخْضَعُ لها، فلا بُدَّ أن يكونَ الخَلْقُ قَدْ تَمَّ بقُدْرَةِ قادرٍ غير مادِّيٍّ، مُتَّصِفٍ بالعلم والحكمةِ، وهو اللَّهُ الخالق المُبْدِئُ.

10 ــ المُعِيدُ

معناه: مأخوذٌ من الإعادة، وهي: إرجاع الشيء إلى ما كان عليه، فاللَّهُ سبحانه وتعالى هو المعيد لما يَشاء إعادته من مخلوقاته، بعد إعدام ذاته أو صورته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ [البروج: 12، 13]. قال المفسّرون: أي من قُوَّته وقدرته التامّة يُبدِئُ الخَلْقَ ويُعيدُهُ كما بدأه بلا مُمانع ولا مُدافع.

قال مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي المتوفّى سنة 606 هـ في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذا الاسم: (المُعيد هو الذي يُعيد الخلقَ بعد الحياة إلى المَمات في الدنيا، وبعد الممات إلى الحياة يوم القيامة). انتهى كلام ابن الأثير.

وقال حُجَّة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي المتوفى سنة 505 هـ في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» (الإيجاد إذا لم يكن مسبوقاً بمثله سُمِّيَ: ابتداءً، وإذا كان مسبوقاً بمثله سُمِّيَ: إعادة، واللَّهُ تعالى بدأ خلق الناس، ثم هو الذي يعيدهم أي: يحشُرُهم، والأشياء كلّها منه بَدَت، وإليه تعود، وبه بَدَأَتِ وبه تعود) انتهى كلامه.

إثبات البعْث بعد الموت

قال اللَّهُ تعالى مُثْبِتاً إعادة الخلق بعد الموت في محكم كتابه الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ

تُوقِدُونَ (٨٠)﴾ [يس: 77 ـ 80]. قال مجاهد في تفسير هذه الآية: جاءَ أُبيُّ بن خلف ـ لَعَنَهُ اللَّهُ ـ إلى رَسُولُ الله ﷺ وفي يده عَظْمٌ رَمِيمٌ، وهو يَفُتُّهُ ويَذْرُوهُ في الهواء وهو يقول: يا مُحَمَّد! أَتَزْعَمُ أن اللَّهَ يبعثُ هذا؟ قال: «**نعم يُميتُكَ اللَّهُ تعالى، ثم يَبْعَثُكَ، ثم يَحْشُرُكَ إلى النار**». وفي حديث ابن عباس أن هٰذا الرجلَ هو العاص بن وائل. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عامٌّ لكلِّ مُنكِرٍ بالبعث. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾. أي: وَلَم يستدلّ مَنْ أنكر البَعثَ بالبَدْءِ على الإعادة، فإنّ الله تعالى ابتدأ خلق الإنسان من سُلالَة من ماءٍ مَهينٍ، فخلقه مِن شيءٍ حقيرٍ ضعيفٍ مَهينٍ يخرج من مَخْرَجَيْ البول عند الرجل والمرأة، كما قال عزّ وجل: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠)﴾. فالذي خلقه من نطفة ضعيفة أليس بقادرٍ على إعادته بعد موته؟ ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ أي: استبعد إعادَةَ اللَّهِ تعالى ذي القدرة العظيمة الذي خلق السمٰوات والأرض، استبعد إعادة الأجساد والعظام البالِيَة الرَّمِيمَة، ونَسِيَ نَفْسَه، وأن الله تعالى خلقه من العَدَم إلى الوجود، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسه ما هو أعظم ممّا استبعده وأنكره وجحده، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ أي: يعلم العظامَ في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرّقت وتمزّقت، ومن يموت في البحار فتأكله الحيتان والأسماك، ومن تأكله الوحوش والسباع، ومن يحترق. وفي حديث للإمام أحمد، عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن رَجُلاً حَضَرَهُ الموت فلمّا يَئِسَ مِنَ الحياةِ أَوْصَى أهلَهُ: إذا أنا مِتُّ فاجْمَعُوا لي حَطباً كثيراً جزلاً، ثم أَوْقِدُوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت فخذوها فدُقّوها، فذُرُّوها في اليَمّ، ففعلوا، فجَمَعَهُ اللَّهُ تعالى إليه، ثم قال لهُ: لِمَ فعلتَ ذلكَ؟ قال مِنْ خَشْيَتِكَ، فغفر الله عزّ وجلّ له**».

وقال تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾ [الروم: 11 ـ 16] يقول تعالى ﴿ٱللَّهُ

يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴿١٦﴾»، أي: كما هو قادرٌ على بداءته فهو قادرٌ على إعادته «ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ» أي: يوم القيامة، فيُجازي كل عامل بعمله.

ثم قال تعالى: «فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴿١٩﴾» [الروم: 17 ـ 19]. إنّ القادرَ على خلق الأشياء وأضدادها كاملُ القدرة، ومن كمال قدرته إخراجُ النباتِ من الحب، والحبِّ من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسانِ من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافرِ من المؤمن، والقادر على إحياء الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، قادر كذلك على أن يُحْيِيَ الناس يوم القيامة وإعادتهم للحياة من جديد للحساب. ثم قال تعالى: «وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴿٢١﴾» [الروم: 20، 21]، أي: من آياته الدالّة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أباكم آدمَ من تراب «ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ»، فأصْلُكُمْ من تراب، ثم من ماءٍ مهين، ثم تصوَّر فكان عَلَقةً، ثم مُضْغةً، ثم صار عِظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا اللّهُ تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروحُ فإذا هو سميعٌ بصيرٌ، ثم خرج من بطْن أمّه صغيراً ضعيفَ القُوى والحركة، ثم كلّما طال عمره تكاملت قُواهُ وحركاته، حتى آل به الحال إلى أن يبني القصور والمباني الشامخات والمصانع، ويخترع الآلات، ويدور أقطار الأرض ويكتسب ويجمع الأموال، وله فكر ودهاءٌ ومكر، ورأيٌ وعلمٌ ومعارف، فسبحان من أقْدَرَه وسيَّره وسخّره وصرَّفه في أنواع الحياة وفاوت بين خلقه في العقول والمدارك، والحُسْن والقُبْح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاء ثم قال: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ»، أي: إن في هذه الأمور لدليل واضح على كمال قدرة الله على إحيائه بعد الموت، وإعادته للحساب إلى أن قال: «وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴿٢٧﴾». قال مجاهد: الإعادةُ أهْوَنُ عليه من البداءة، والبداءةُ عليه هيّنةٌ. روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «**يقولُ اللَّه تعالى: كذّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشتمَني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيّايَ فقولُه: لَنْ يَعيدَني كما بَدَأني، وليسَ أولُ الخلقِ بأهونَ عليَّ مِن إعادته، وأما شَتْمُه إياي فقوله: اتخذ اللَّهُ وَلداً، وأنا الأحد الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**».

11 ــ الباعث

لما كان في ضمن الخلق بَعْثُ السواكنِ إلى الحركة، وبَعْثُ المَوْتَى إلى الحياة مرّة ثانية، كان الخالق الواحِدُ هو الذي يَبْعَثُها، ومِن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الباعث). وهو مأخُوذٌ من البَعْث، وهو إثارَةُ الساكِن وتغيير حاله، فاللَّهُ سبحانه هو باعثُ الرُّسُل بالأحكام والشرائع، وباعِثُ المَوْتَى إلى الحياة، وباعِثُ النائمينَ إلى اليقظةِ، ونحُو ذلك...

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في معنى هٰذا الاسم: (الباعِثُ: هو الذي يَبْعَثُ الخَلْقَ، أي: يُحْيِيهم بعد الموتِ يومَ القيامة).

وقال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه: «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الباعث: هو الذي يُحْيي الخلْقَ يوم النُشورِ، ويَبْعَثُ مَنْ في القُبُورِ، ويُحَصِّل ما في الصدور، والبَعْثُ: هو النَّشْأَةُ الآخرة، ومعرفة هٰذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث، وذلك مِن أغْمَضِ المَعارِف، وأكْثَرُ الخلقِ منه على توهُّماتٍ مُجْمَلَةٍ، وَتَخَيُّلاتٍ مُبْهَمَةٍ، وغايَتُهم فيه تَخَيُّلُهم أنَّ الموتَ عَدَمٌ، والبَعْثَ إيجادٌ مُبْتدأٌ بعد العدم مثلُ: الإيجاد الأول.

هل الموت عدم؟

فَظَنُّهُم أن الموتَ عَدَمٌ غَلَطٌ، وظنُّهم أن الإيجادَ الثاني مثلُ الإيجاد الأوّلِ غَلَطٌ. فأما ظَنُّهم أن الموتَ عَدَمٌ فهو باطِلٌ، بَلِ القَبْرُ إمّا حُفْرَةٌ مِن حُفَرِ النيران، أو رَوْضَةٌ من رياض الجَنَّةِ. والمَوْتَى إمّا سُعَداءُ وأولئك ليْسُوا أمواتاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾ [آل عمران: 169، 170]، وإمَّا أشْقِياءُ، وهم أيضاً أحْيَاءُ، ولذلك ناداهُم رسولُ اللَّهِ ﷺ في وَقْعَةِ بَدْرٍ وقال: «**إنّي وَجَدْتُ ما وَعَدَني رَبّي حَقّاً، فهل وَجَدْتُم ما وعد رَبُكُم حقاً؟**» فقيل له: كيفَ تُنادِيَ قَوْماً قد جَيَّفُوا؟ قال: «**ما أنْتُمْ بأسْمَعَ لِما أقولُ مِنْهُم، ولكنَّهُم لا يَسْتَطِيعُونَ أن يُجيبُوني**».

ما الذي خلقه الله أولاً؟

وأما ظَنُّهُمْ أن البَعْثَ إيجادٌ ثانٍ وهو مِثْلُ الإيجاد الأوَّلِ، فَغَيْرُ صحيح، بَلِ البَعْثُ إنْشاءٌ آخَرُ لا يُناسِبُ الإنْشَاءَ الأوَّلَ أَصْلاً. وللإنسانِ نَشْآتٌ كثيرةٌ، وليست هي نَشْأَتَيْنِ فقط، ولذلك قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الواقعة: 6]، وكذلك قال الله تعالى بعد خَلْقِ المُضْغَةِ والعَلَقَةِ وغير ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 14]، بل النُطفة نَشْأة من التراب، والمُضْغَةُ نَشْأَةٌ منَ النُطفَةِ، والعَلَقَةُ نَشْأَةٌ مِنَ المُضْغَةِ، والرُوحُ نَشْأَةٌ من العَلَقَةِ، ولِشَرَفِ نَشْأة الرُوحِ وجَلالتِها وكَوْنِها أمْراً ربانياً، قال عزّ وجل عند ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] وقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 8] ثم خَلْقُ الإدراكات الحِسِّيَّة بعد خَلْقِ أصْلِ الرّوح نشأةٌ أُخرى، ثم خَلْقُ العَقْلِ بعد خمسَ عَشْرَةَ سَنةٍ وما يُقاربها نَشْأَةٌ أخرى، وكلُ نشأةٍ طَوْرٌ ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح: 14]، ثم ظهور خاصّيَّة الولاية ـ لِمَنْ رُزِقَ تلك الخاصِّيَّة ـ نَشْأَةٌ أخرى، ثم ظهور خاصّيّة النبوّة بعد ذلك نَشْأَةٌ أخرى، وهو نوعٌ مِن البعثِ، واللّهُ تعالى باعِثُ الرُسُلِ، كما أنه الباعِثُ يومَ النُشُورِ. وكما أنه يَعْسُرُ على مَنْ في المهد فَهْمُ حَقيقةِ التَّمْييزِ قبل حُصولِ التمييز، يَعْسُرُ على المُمَيِّزِ فَهْمُ حقيقة العقل وما يتكشَّف في طوره من العجائب قبل حصول العقلِ، وكذلك يَعْسُرُ فهم طَوْرِ الولايةِ والنُبوَّة في طَوْرِ العَقْلِ، فإنّ الولايةَ طَوْرُ كمالٍ وراء نشأةِ العَقْلِ، كما أن العَقْلَ طَوْرُ كمال وراء نشأةِ التمييز، والتمييزَ كمالٌ وراء نشأةِ الحواس.

وكما أنّ مِن طِباع الناس إنكارَ ما لم يبلغوه ولم ينالوه، حتى إنّ كلَّ واحد يُنكر ما لم يشاهده، ولم يَحْصَلْ له، ولا يُؤْمِنُ بما غَابَ عَنْهُ، فمِن طِباعهم إنكار

الولاية وعجائبها والنبوّة وغرائبها. بل مِن طِباعهم إنكار النشأة الثانية والحياة الآخرة؛ لأنهم لم يبلغوها بعد. ولو عَرَضَ طَوْرُ العَقْلِ وعالَمُهُ وما يَظهر فيه مِنَ العَجائِب على المُميِّز، لأنكره وجحده واحال وُجودَه. فَمَنْ آمن بشيء مِمَّا لم يَبْلُغْه فقد آمن بالغَيْب؛ وذلك هو مُفْتاحُ السعادات.

هل الوصول الى الكمال يكون في النشأة الآخرة؟

وكما أن طَوْرَ العقل وإدراكاتِهِ ونشأتَهُ بَعِيدُ المناسبة عن الإدراكات التي قبله، فكذلك النشأةُ الأخيره أَبْعَدُ، فلا ينبغي أن تُقاسَ النَشأةُ الأخيرة بالأولى. وهذه النشأة هي أَطْوَارُ ذاتٍ واحِدَةٍ، ومَراقيها التي يَصْعَد فيها إلى مراتب درجات الكمال حتى يَقْرَبَ من الحضرة التي هي مُنْتَهَى كُلِّ كمال، إذْ يكون عند الله تعالى بَيْن رَدٍّ وقَبول، وحِجابٍ ووُصُول، فإن قُبِلَ رَقِيَ إلى أعلى عليّين، وإلا رُدَّ إلى أسفل سافلين. والمقصود أن لا مناسبة بين النشأتين إلّا من حيث الاسم، ومَن لم يعرف النشأة والبَعْث، لم يعرف اسم الباعث.

هل البعث مقصور على احياء الموتى؟

حَقِيقَةُ البَعْث يرجعُ إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى. والجهلُ: هو الموتُ الأكبر، والعِلْمُ: هو الحياة الأشرف، وقد ذكر الله تعالى العلمَ والجهلَ في الكتاب وسمّاهُ: حَياةً ومَوتاً. ومَن رَقّى غيره من الجهل إلى العلم فقد أنشأه نشأة أخرى وأحْياهُ حياةً طيّبةً، فإن كان للعبد مَدْخَلٌ في إفادة الخَلْقِ العِلْمَ ودُعائِهم إلى الله تعالى، فذلك نوعٌ من الإحْيَاءِ، وهي رُتْبَة الأنبياء ومَن يَرِثُهم من العلماء) اهـ.

دليله من القرآن

ورد فعل البعث في القرآن في مواضع كثيرة منها قوله تعالى في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ

بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: 5 ـ 7]. ذَكَّرَ اللَّهُ تعالى للناس المنكرين للبعث الدليل على قدرته تعالى على بعث الخلق، بإعادة إحيائهم بعد الموت بما يشاهدونه من بَدْئِه للخلق، من تراب، ثم من نطفة، طوراً بعد طور، ثم يأتي بدليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يُحْيِي الأرض الميْتة الهامدة وهي المُقْحِلَة التي لا يَنْبُتُ فيها شيء، فإذا أَنْزَلَ اللَّهُ عليها المطرَ اهتزّت أي: تحرَّكت بالنبات وحَيِيَتْ بعد موتها، فهو الخالق المُدَبِّر الفعّال لما يريد، وهو قادر على إعادة الناس بعدما صاروا في قبورهم رِمَماً، ويوجدهم بعد العدم.

12 ــ المُحْيِي

معنى الاسم

لما كان مِنْ صُورِ الخَلْقِ إلقاءُ الحياةِ في الجَوامِد، وسَلْبُ الحياةِ من الأَحْياءِ بالمَوْتِ، كان الخالق الواحد سبحانه هو الذي يُحْيِي ويُميت، ومِن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (المُحْيِي) ومعناه: خالقُ الحياةِ وواهِبُها لِمَنْ يَشاءُ حياته.

أقوال العلماء

قال الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن السَّرِيّ الزجَّاج المتوفى سنة 311 هـ رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه «تفسير أسماء الله الحسنى» (**المُحْيِي**: اللَّهُ الذي أَحْيا الخَلْقَ بأن خَلَقَ فيهم الحياة، وأحيا الموات بإنزالِ الحياة، وإنباتَ العُشْب، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2].

وقال حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي المتوفّى سنة 505 هـ رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (**المُحْيِي** يرجع معناه إلى الإيجاد، والموجودُ إذا كان هو الحياةَ يُسَمّى فِعلُه إحْيَاءً، وإذا كان المَوتَ سُمِّيَ فِعْلُهُ إماتَةً، ولا خالِقَ لِلْمَوتِ والحياةِ إلّا الله

تعالى، فلا مُحْيِي ولا مُمِيت، إلّا الله تعالى).

دليله من القرآن الكريم

قال الله تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: 48 ـ 50]. نبّه الله تعالى على إحياءِ الأَجْساد بَعدَ موتها وتفريقها وتمزّقها بإحياء الأرض الميتة اليابسة بالمطر بعد موتها، فتعودُ خضراءَ تُنْبِتُ الزَرْعَ وتعودُ الحياةُ فيها من جديد، فالذي فعل ذلك لقادرٌ على إحياء الأموات إنه على كلّ شيءٍ قديرٌ.

محاولة الإنسان ايجاد الحياة

تقدّم الإنسانُ المعاصر في موضوع التكنولوجيا تقدُّماً هائلاً، فحاول في العصر الحديث أن يتدخّل في شؤون الخلْق ويَدَّعي إيجاد الحياة، وهو يُجْري المحاولات في المختبرات لصناعة الحياة، ولكن علماء الغرب أنكروا الإيمان بالله الخالق، وآمنوا بالعلم التجريبي إيماناً مُطلقاً، فهم لا يؤمنون إلا بما يرونه ويشاهدونه ويحسّون به، ويَخْضعُ لتجاربهم، وقد أطلق زعيمهم الملحد «ماركس» مقولته الشهيرة: (لا إله والكون مادّة)، فالحياة عندهم بأصلها، وكل شيء فيها هي حياة ماديّة، والذي دفعهم لهٰذه الماديّة الجانحة المتطرّفة موقف رجال الكنيسة من رجال العلم والمخترعين والمكتشفين، الذين جاءوا ليُثبتوا للناس نظريات علمية كان رجال الكنيسة يرفضونها ويعتبرونها كفراً، ويفرضون على الناس نظريات خاطئة يُلبِسُونَها ثوب الدين، ليُموّهوا على الناس باسم الدين لتتمّ لهم السيطرة عليهم وعلى عقولهم، وهٰذا موقف خاطىء اتخذه رجال الكنيسة من العلم لا دخل للدين به، ولم يأمر به، وقد تسبّب عنه إحداثُ جفْوة واسعة بين العلم والدين، لا يزال العالم الغربي في أوروبا وأمريكا يعاني منها حتى اليوم، وتُلقي بظلالها الثقيلة وآثارها السيئة على العالم بأكمله، فنشأ عندهم نتيجةً لذلك الفكر العَلْماني المعاكس للفكر الديني والمحارب له، وتمّت الغلبة آخر الأمر في

أوروبا للعَلْمانيين الذي اعتبروا الدينَ خُرافةً، ومانعاً من تقدُّمهم العلمي، فثارُوا في القرن الخامس عشر الميلادي ثورتهم الصناعية، ومن ذلك التاريخ، والغرب يطرح الدين جانباً ويعتبره سبباً من أسباب التأخّر والتقهقر، ويحارب أتباعه، وهو معذور في ذلك بسبب موقف رجال الاكليروس من العلماء.

الإسلام والعَلمانية

ولكن ما شأننا نحن المسلمون نقلّد الغرب تقليداً أعمى في كل شيء حتى في موقفنا من الدين؟! إن الوضع عندنا مختلف تماماً عمّا هو عندهم، فلا ديننا دينهم، ولا رجال ديننا حاربوا العلماء والعلم، بل على العكس من ذلك تماماً، فَدِينُنا الإسلام يدعو للعِلم، ويجعل طلبه فرضاً على كل مسلم ومسلمة، ويجعله من أفضل القربات إلى الله، ويجعل العلماء من أفضل الناس وأخشاهم لله، ويبوّؤهم في المجتمع مركز الصدارة والقيادة والإصلاح والتوجيه والإرشاد، ويدعو الإنسان إلى إعمال عقله والتفكر والنظر في الكون ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ [النمل: 69]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: 24]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: 50]، ويحارب الجهل والخرافة، والظنون والشكوك والأوهام، ويدعو الناسَ للتثبّت من الأخبار، ويضع قواعد لقبول الأخبار لم يوجد مثلها في أمةٍ من الأمم، أصبحت منهجاً للمؤرّخين في التوثيق والمعلوماتية.

ولكنها عِلّةُ التقليد الأعمى للغرب بعُجَرِه وبُجَرِه، ولو أنصف المسلمون مع أنفسهم لَعَلِمُوا قيمة دينهم وأنه سَبَبُ نهضتهم ورُقِيِّهم، وأنهم لم يتقهقروا ويضعفوا إلا بسبب هَجْرِهِمْ له وابتعادهم عنه.

وها هي الحضارة الغربية تعلن إفلاس مبادئها، وانهيار إلٰهها المزعوم الجديد: «العلم»، أمام تَسَلُّط فئة حاقدة من شُذّاذ الآفاق، ومرضى النفوس الذين يحاولون السيطرة على الشعوب بالقوة، وفرض هيمنتهم عليهم، واستعبادهم وإذلالهم، واستغلال مواردهم، ونهب خيرات الدول والشعوب، واستخدام العلم والتكنولوجيا لتحقيق أهدافهم الأنانية المنحطّة، وفرض نظام جديد للعالم، وأنموذج للعيش هو النظام الأمريكي، فهم يريدون «أَمْرَكَة» العالم بالقوة، وبسط أفكارهم على جميع شعوب العالم بما يسمّى: «بالعولمة»، «والنظام العالمي

الجديد» وغيرها من التسميات البرّاقة الخدّاعة، التي تموّه على الشعوب باسم: التقدُّم والرقي، وهي لا تريد لها الخير، وإنما تطمع باستعبادها، ونهب خيراتها وثرواتها وتركها ضعيفة حقيرة ذليلة لا تقوى على مجابهتها ولا تخرج عن سيطرتها. بينما جاء الدين الإسلامي ليحقّق للناس الكرامة والعزة والسعادة، ويهديهم إلى الإيمان بخالقهم وبارئهم ويدعو إلى سلوك الصراط المستقيم بطاعة ربّهم واتّباع دينه القويم، وعدم الخضوع إلّا له.

فشل محاولة الخلق

لقد حاول علماء الغرب أن يُثبتوا أن الحياة يُمكن أن تُصنَع من المادة، فأرادوا أن يَصِلُوا إلى هٰذا بكل جهودهم، فهل أفلحوا في صُنْع الحياة من المادة؟ هناك عالم أمريكي أستاذ للأحياء ومختص في علم الوراثة اسمه: (ألبرت وشستر) أعلن عن عجز الإنسان خلق الحياة في المختبر، بل توصّل إلى إثبات وجود الله عن طريق اختصاصه، وقد مزج بعض المواد الكيميائية بِنِسَبٍ مُعَيَّنة، لكي تتكون منها مادة تسمّى حمض (D.N.A.) النووي، وهي من المواد الموجودة داخل الخلية الحيَّة، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ هل الحمض الذي ركّبوه من مواد غير حيّة يتكاثر؟ الجواب: لا، مع أنه نفس الحمض الطبيعي وبنفس تركيباته، إن هناك سِرّاً مفقوداً، ألا وهو الحياة، وهٰذه لا يهبها أحد إلا الله المبدىء المحيي الخالق. وقد تَحَدّى اللَّهُ مُنكري أُلوهيته والكافرين به أن يخلقوا أتفه شيء في الكون وهو الذباب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73].

قيمة الحياة الإنسانية في الإسلام

تكريم الله للإنسان

الإنسان مَخْلُوقٌ مُكَرّمٌ مُفَضَّل، أرادَ اللَّهُ له أن يَتَسَنَّمَ الصدارة في سُلَّم الخليقة والكائنات جميعاً، قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا

تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: 70]. ومن أعظم الدِلالات على تعظيم الإنسان المؤمن ما قاله عبد الله بن عمرَ مخاطباً الكعبة: «ما أَعْظَمَكِ وأعظمَ حُرْمَتُكِ، ولحُرْمَةُ المؤمن عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حُرْمَتِكِ» (أخرجه ابن ماجه) واستدلّ العلماءُ لذلك أيضاً بأن خطيبَ الحَرَمِ المكي يستقبل المؤمنين بوجهه في خُطْبَة الجمعةِ، ويولّي ظهره للكعبة، وكذلك يفعل خطباء الأرض جميعاً.

كما اسْتَدَلَّ العلماءُ على أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات وتميُّزه عنهم بأمر الله للملائكة بالسجود له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [البقرة: 34]. ولقد عَرَضَ اللَّهُ أمانة استخلافه في الأرض على سائر المخلوقات فَأَبَيْن أن يَحْمِلنها لِثِقْلِها وَتَبِعَتِها وجسيم مسؤوليتها، وحَمَلَها الإنسانُ جهلاً منه بعظمةِ ربّه وخطر دَوْرِهِ، وظُلماً منه لِنفسه حين يُعرّضها للعقاب جزاء تقصيره فيها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72].

ولقد هَيَّأ اللَّهُ الإنسان لهٰذا الدور في الأرض، وشَحَنَهُ بالمواهب والطاقات وعظيم القُدُرات والاستعدادات، وسَخّر له جميع ما في السمٰوات والأرض، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان 20]، وحَشَدَ اللَّهُ له كبيرَ العناية والحرص، وأنزل له التشريع والكتب، وأرسل له الرسل ليدلّوه على ربّه وعلى دينه الذي يرتضيه لعباده، كي يعيش آمناً مطمئناً مصوناً، لا يمسّه أذى أو شرّ.

ومنذ أُهْبِطَ الإنسانُ إلى الأرض افترقت ذرّيّتُه فريقَيْن: فَريقٌ آمن بربّه ورضي بطاعته، واتّبع رضوانه، وصدَّقَ رُسُلَه، وعمل بدينه وشرعه فاستحق تكريمه، وفريق انتكسَ إلى أَسْفلَ سافلين حيث كَفَرَ بربّه، وجَحَدَ نِعَمَه عليه، واتّبع شيطانه وهواه، فضلّ عن سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: 4 ـ 6].

تحريم الاعتداء على الحياة

إن المتأمّل في دين الله الإسلام يجده يُحيط الإنسان بسياج من التشريع، يحفظ عليه حياته ونفسه وجسده وكيانه كلّه، لينشأ سوياً متكامل الشخصية، وليكون إنساناً صالحاً، وحرّم الاعتداء عليه في حياته، وعقله، أو نسله أو ماله، أو نفسه، أو عرضه، أو دينه، أو شعوره وكرامته، واعتبر الاعتداء على النفس المؤمنة بغير حقّ جريمةً بَشِعَةً لا تُضاهِيها جريمةٌ إلا الشركُ باللّه، ولقد اشتدّ غضبُ اللّهِ على مَن يَقتل مؤمناً عَمْداً، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: 93]. وروى الترمذي والنسائي، عن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ: **«لزوالُ الدُّنيا أهوَنُ على اللّهِ مِن قتل رَجُلٍ مسلم»**. وأَوْجَبَ عقوبة القتل على من يقتل مؤمناً بغير حق.

تحريم الانتحار

ومن مظاهر تكريم الإسلام للإنسان: تحريم الانتحار، وهو قتل النفس يأساً، وهذه فِعلة بَشِعَةٌ نكراء يلجأ الإنسانُ اليائسُ الشَقِيُّ الجاحِدُ التعيس الذي فقد أعصابه وصوابَهُ في لحظة غَفلةٍ عن اللّهِ، ولا يُقْدِمُ على قتل نفسه إلّا من فَسَقَ عن أمْرِ اللّهِ في وجوب الاعتصام بحبله، والتحلّي بالصَبْرِ وقوّة الإرادة، وليس في قتل النفس إلّا التمرُّد على الله، والنُكرانُ اليائِسُ لنعمة الله الكبرى وهي الروح، فإذا ما أَقْدَمَ الإنسان على إزهاقِ هٰذه الروح عَمْداً كان ذلك ردّاً لنعمة الله الجليلة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]. وأخرج الأئمة الأربعة عن أبي هُريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«مَن تَرَدَّى مِن جَبَلٍ فقتل نَفْسَهُ فهو في نار جهنم يتردّى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومَن تَحَس سُمّاً فقتل نفسه فسُمُّه في يده يَتَحَسَّاه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومَن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يَجأُ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً»**.

فرض العقوبات لحماية الحياة

لا يكتفي الإسلام بتحريم القتل على سبيل الموعظة الوجدانية فقط والتي لا تتجاوز غير الترغيب أو الترهيب، بحيث تكون الأمور مَنُوطَةً بضمير الفرد،

ولكن الدين والشرع الإسلامي نظام واقعي يعتمد حقيقتين عند التطبيق:

الأولى: التقوى أو الوازع الديني الذي يستقرّ في القلب والضمير، وينتشر في أعماق الإنسان، ليكون للإنسان خيرَ حافز ومؤثر، قال رسول الله ﷺ: «**التقْوَى هاهنا**»، وأشار إلى صدره الشريف، (أخرجه مسلم) فالتقوى تُحَفِّز الإنسان المؤمن على أداء الواجبات وفِعل الخيرات، وتزجره عن إتيان المنهيات والمنكرات والمحظورات، وتهيمن على الحسّ هَيْمَنَةً تَنشر فيه التَيَقُّظ وتُربّي الضميرَ على الشعور الدائم بحبّ الخير، وبُغْضِ الشرّ والباطل.

الثانية: التشريع التنفيذي الذي يُوجبُ أن تتحقَّقَ الأحكام بالفعل لتَتَحَوَّلَ إلى ممارسات وتصرُّفات عملية، تتحقق في مَيْدان الحياة وفي واقع البشر، وعلى ذلك فإنه ما مِنْ حكم إلّا وقد أوجبَ الإسلامُ تحقيقَهُ فعلًا ودون تَرَدُّد، كيلا يكون التكليف بهٰذا الحكم مجرَّداً عَنِ السُلْطَةِ الآمِرَة المُنَفِّذَةِ، التي تفرِض تطبيقَ الحُكم عن طريق القُوَّة، فليس الإسلام نظاماً تشريعياً فقط يقول كلمته دون متابعة، وإنما أوجب قيام حكومة إسلامية ترعى تطبيق التشريع النظري وتنفذ الأحكام على الفور عملياً، وعلى هٰذا الأساس فإنه من أجل حماية الحياة وأرواح الناس، ومنع الاعتداء على الإنسان، فقد شرع الإسلام عقابه الحازم الصارم الذي يتناول كل أنواع الجرائم التي تلحق بالفرد والجماعة. ومنها: القصاص، والحدود، والتعازير.

والقصاص يعني: المماثلة، وهو أن يُقتل القاتل عمداً، وكذلك يعاقب بالمثل من قارف جرحاً عمداً، فمن ضَرَبَ يُضرَب، ومن لَطَمَ يُلطَم، ومَن قَطَعَ يُقْطَع، ومَن فقأ عيناً فُقِئَتْ عَيْنُه بالمثل، إلّا أن يعفو أخوه أو أولياؤه أو يرضوا بالدية. والأصل في تشريع القصاص قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة: 178]. وقال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: 45]. ثم يبيِّنُ القرآن أن في تشريع القصاص ما يحقق للناس الأمنَ والرخاء ويزرع في الأرض قواعد الطمأنينة والاستقرار والسلامة العامة، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: 179].

13 ــ المُمِيتُ

معناه: لمّا كان من صُوَر الخلق إلقاءُ الحياة في الجوامد، ونَزْعُ الحياة من الأحياء بالمَوْت، كان الخالق الواحِد هو سبحانه الذي يُحْيي ويُمِيت، ومِنْ هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحُسْنَى: (المُمِيت).

ومعنى المُمِيت أي: هو خالق المَوْت فيمن سَبَقَ أن وهبه الحياة، ونازعُ حياته منه. قال الله تعالى في معنى أنه يُحْيِي ويُميت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: 158].

أقوال العلماء

قال حجّة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنى»: (هٰذا أيضاً يَرْجِعُ إلى الإيجاد، ولكن المَوْجُود إذا كان هو الحياة يُسَمَّى فِعْلُه: إحْيَاءً، وإذا كان هو الموت سُمِّي فعله: إماتَةً، ولا خالق للمَوْتِ والحياةِ إلّا اللَّهُ تعالى، فلا مُحْيِي ولا مُمِيت إلّا اللَّهُ تعالى).

وقال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (المَوْتُ يُطْلَقُ في كلام العرب على السكون، ويَقَعُ الموتُ على أنواع بحسَب أنواع الحياة، فمنها ما هو بإزاءِ القُوَّة النامِيَةِ الموجودة في الحيوانِ والنبات، كقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: 19].

ومنها: زوال القُوَّة الحِسِّيَّة، كقوله تعالى على لسان مَرْيم ابنة عمران: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: 23].

ومنها: زوال القوة العاقلة وهي: الجهالة، كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122]. ، وفي سورة النمل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: 80].

ومنها: الحُزنُ، والخوف المُكَدِّرُ للحياة، كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: 17].

ومنها: المنامُ كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42]. وقد قيل: المَنَامُ: هو الموتُ الخَفِيفُ، والمَوْتُ هو النوم الثَّقيلُ.

وقد يُسْتَعَارُ الموتُ للأحوال الشاقَّة، كالفقر، والذُّلِّ، والسُّؤال، والهَرَمِ، والمَعْصِيَةِ وغير ذلك) انتهى كلام ابن الأثير.

دليله من القرآن الكريم

قال الله تعالى في سورة غافر: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ أي: هو المتفرّد بذلك لا يقدرُ على ذلك أحَدٌ سِوَاهُ.

وقال تعالى في آخر سورة المنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾. يقول الله تعالى آمِراً لعباده المؤمنين بكثرة ذِكْره، وناهِياً لهم عن أن تشغلهم الأموالُ والأولادُ عن ذلك، ومُخْبِراً لهم بأنه مَنِ الْتَهَى بمتاع الحياة الدنيا عمّا خُلِقَ له من طاعَةِ ربِّه وذِكْرِه، فإنّه من الخاسِرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ثم حثَّهم على الإنفاق في طاعته، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾، فكُلُّ مُفَرِّطٍ يندمُ عند الاحتضار، ويسأل طولَ المُدَّة ولو شيئاً يَسِيراً لِيَسْتَعْتِبَ ويَسْتَدْرِكَ ما فاته، وهيهات، كان ما كان وأَتَى ما هُوَ آتٍ، وكلٌّ بِحَسَبِ تفريطِهِ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99 ـ 100]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يُنْظِرُ أحداً بَعْد حُلول أَجَلِهِ وهو أعلم وأخبَرُ بمن يكون صادِقاً في قوله وسؤاله، مِمَّن لو رُدَّ عادَ إلى أشرٍّ مِمّا كان عليه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن المؤمِنَ الذي يعتقدُ أن الموتَ والحياة بيد الله تعالى وَحْدَه، لا يخاف أحداً غيره تعالى، ويعلمُ أنّ أَجَلَهُ ورزقه مُقدَّرٌ مَحْتُومٌ قبل أن يخلُقَ اللَّهُ الخَلْقَ، ومكتوب في اللوح المحفوظ، وقد روى ابن مسعود ﷺ في الحديث المتّفق عليه عند الشيخين البخاري ومسلم في كتابَيْهِما، اللذين هما أَصَحُّ الكتب بعد كتاب الله تعالى عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «**إن خَلْقَ أَحَدِكم يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعينَ يوماً نُطْفَةً، ثم يكونُ عَلَقَةً مِثلَ ذلك، ثم يكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثم يَبْعَثُ اللَّهُ إليه مَلَكاً بأَرْبَعِ كلماتٍ فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَمَلَهُ وأَجَلَهُ ورِزْقَهُ وشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ، ثم يُنْفَخُ فيه الروحُ**».

إن عقيدة الإيمان بأن الله هو المحيي المميت، تُميّزُ المسلمين عن غيرهم من الناس، إنها تنزع من قلوبهم الجُبْنَ وحبّ الدنيا والخَوْف من الموت، وتُكسِبُهم الشجاعة والبطولة والفِداءَ والإقدام في المعارك الحربية غيرَ هيّابين ولا وَجِلين، وهٰذا ما يُسَمَّى اليوم: بالدعم المعنوي، والتعبئة المعنوية، في أنظمة الجيوش العالمية، فهي تحاول تعبئة جيوشها بالروح المعنوية العالية قبل خوض المعارك، فالجندي غير المسلم في ساحة المعركة يشعر بمواجهة الموت، وأنه سيفقد أعزّ ما لديه وهو حياته وروحه، وأنه سيخسر الدنيا، وبالتالي فهو يخاف الموت ولا تستطيع قُوَّةٌ إقناعَهُ بتقديم روحه فداءً لأمر آخر أغلى من روحه كالوطن، والمكاسب المادية، فهل هناك أغلى من روحه؟ أما الإنسان المسلم المؤمن بالله فإن دين الله عنده أغلى من روحه ومن حياته ، والله قد وعده حياة أطيب من حياته هي: الجنة، إن مات في سبيله، وسمّاه: شهيداً، فهناك دافعٌ له قوي يحمله على بذل روحه وتعويضٌ أكبر، وهدفٌ أَسْمَى من هٰذه الحياة الدنيا

ومتاعها وزخارفها، إنه رِضْوانُ اللَّه، والفوزُ بقربه في جناته، والله قد وعد الشهداءَ أعلى مراتب في الجنة مع الأنبياء والصديقين والصالحين، قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

لقد جاء الإسلام ليصحّح للناس مفهوم الحياة والموت، فالحياة فيه هي لِعِبَادَةِ الله وطاعته ونشر دينه في الأرض ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56] والموتُ فيه هو في سَبيلِ الله ومَرْضاتِه، ونُصْرةِ دِينِهِ، فالدينُ لا ينتصرُ إلا بتضحيات أَهْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: 10 ـ 13]. إن المؤمن الذي يبذُل روحه رخيصة في سبيل الله في ساحات القتال يتيقّن أنه سيفوز بإحدى الحُسْنَيَيْن: إما النصر لدين الله، وإما الشهادة في سبيل الله.

عقيدة الموت في سبيل الله عند المسلمين وفضل الجهاد

تعريف سبيل الله: يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: 33]. يُبَيِّنُ اللَّهُ تعالى في هٰذه الآية الكريمة أنه أرسل رسوله محمداً ﷺ رسولاً إلى البشرية جمعاء برسالة الإسلام، فما هي هٰذه الرسالة؟ وما هو مضمونها؟ إنها دعوة الناس كافة إلى عبادَةِ الله وطاعته وحده؛ لأنه الإلٰه الخالق، وله الأمر، وإلى عدم جحوده والكفران به والخروج عن منهجه وشريعته والتمرُّد عليه، وأن يُبَلِّغَ الناسَ كُلَّهم هذه الرسالة وأن يخاطبهم بالحسنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21]، وأمره بمخاطبة

أهل الكتاب خاصَّة بأن يقول لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 64].

الدعوة الى الله

وبيَّن الله أن هٰذه الرسالة هي الهُدَى ودِينِ الحَقِّ، وأنها سَبِيلُ اللَّهِ، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]، وأمر نبيَّه والمُؤْمنين معه أن يَسْلُكُوا مَسالِكَ الدَّعْوَة جميعها إلى هداية الناسِ إلى الله، بَدْءاً بالمناقشة والبيان، والحُجَّة والبُرْهَان، وانْتِهاءً بالمقارَعَةِ والسنَان لمن يقف حاجزاً في وجه هٰذه الدعوة، ويُناصِبُها العداءَ والحربَ، فأمر رسُولَهُ والذين آمنوا الجهاد في سَبِيلِهِ، وعدم الاعتداء على الناس فقال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: 190].

الأمر بالجهاد في سبيل الله

وَوَعَدَهم بأنَّه سَيَنْصُرُهُم ويُعْلِي دينَه على جميع الأديان المخالِفَة له، وأنّ هٰذا الأمْرَ سَيَغيظُ المُشْركينَ بالله والكَفَرَة، وسَيَحْمِلُهم على مُجَابَهَة دينِ اللَّهِ انتصاراً لباطِلهم وحِفاظاً على وُجودِهِم وعروشهم ومراكزهم ومصالِحِهم المُهَدَّدَة بالزَّوال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 76]، وأنّ الكَفَرَة سَيَعْمَلُون بكل ما أُوتُوا من قُوَّةٍ لإطْفَاءِ نورِ اللَّهِ وشَرْعِهِ وَدِينِهِ والقضاءِ على أَهْلِهِ، وسَيَضَعُونَ المُخَطَّطات الشيطانية وسَيَشُنُّونَ الحملات المنظّمة، وسَيَسْتَعِينُونَ بكل قِواهُم الأرضية الشِرِّيرَة، ومُنَظَّماتهم السرّيّة التي وصلت إلى مراكز السلطة في كل بلاد العالم، والمُجَهَّزَة بأحْدثِ الأسْلِحَة الفتّاكة، والمُدَرَّبَةِ أحسن تدريب، وسَيَعْقِدُونَ المؤتمرات لذلك الغرض، ولكن النتيجة النهائية الحتمية أنهم لن يُفْلِحُوا في إطفاء نُورِ اللَّهِ، وأنّ اللَّهَ سَيُتِمُّ نُورَهُ وينصر دينه ولو كَرِهَ هٰؤلاء الكافرون: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: 32].

الصراع بين الحق والباطل

إنَّ الصِراعَ بين الخَيْرِ والشَرِّ، والحَقِّ والباطِلِ، والهُدَى والضَلال قديمٌ قِدَمَ البَشَرِيَّةِ، فَمُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ وفَضَّلَه على سائر الكائنات، وأمر ملائكته بالسُجُودِ له، وكان فيهم إبليسُ - وليسَ منهم بل هو من الجِنّ كما بين الله في سورة الكهف ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ - أبى أن يَسْجُدَ له حَسَداً وعِناداً وكِبْراً وكُفراً، وناصَبَهُ العَداوَةَ، وأَقْسَمَ بعِزَّةِ الله ليُغْوِيَنَّه وذُرِّيَّتَهُ أجمعين إلّا عبادَه المُخْلَصِينَ، فكان عَدُوَّه الذي يَسْعَى للمَكرِ به وإضلالِهِ وإغوائه وصَرْفِه عن سبيل الله، ليُرْدِيَهِ معه في جَهَنَّم، وقد حذّر اللَّهُ الناسَ من عِبادَةِ الشيطانِ واتّباع وسوسته، وأَمَرَهُمْ بمجاهدته فقال لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: 60 - 61].

تعدُّد صور الجهاد

عرفنا أنّ المسلمين أصحابُ رسالة، وأنّ الله قد شرّفهم بحمل دينه ودعوة الناس إليه، بكل الوسائل المتاحة لنشره في أرجاء الأرض، وقد بيَّن اللَّهُ لنا أن صُوَر الجهاد في سبيل الله متعدّدة، فمنها: المجاهدة بالدعوة واللسان، ليشيع دينُ الله في الأرض، عسى أن تهتديَ الأمم إلى ربّها، وتبادر إلى الصلاة والاستقامة، ومنها: البَذْلُ للمال يُؤدّيه الأغنياءُ للمجاهدين أولي العزم والقوة، فيتجهّزون به، ومنها: الجهاد بالنفس والروح بإنزالها في ميدان القتال للتصدّي لأعداء الله، وهٰذا أعلى درجات الجهاد.

لقد أَمَرَ اللَّهُ المسلمين ألّا يطرقوا باب القتال ابتداءً، بل يبدأوا بالدعوة الهادئة أولاً بالبيان والإقناع والعرض الهادىء العقلي المنطقي، المُدلّل بالبراهين والحجج والكلمة الحانية المرغّبة، وقد دخلت كثير من شعوب الأرض في الإسلام بأسلوب الدعوة، وأمرهم وألّا يلجأوا إلى القتال إلا في مراحل الدعوة الأخيرة، وذلك أن الإسلام أساساً مبنيٌّ على التصديق واليقين، وهما أمران أساسهما: العقل والتفكير السليم، وسبيل ذلك هو البرهان الظاهر والحجة الوافية

الدامغة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]. ثم بعد ذلك إذا رأى المسلمون أن الظالمين والمعتدين الذين يقفون في وجه نشر دين الله وتبليغه لشعوب الأرض لا سبيل إلى التفاهم معهم إلا بلسان الشِدَّة والحرب، فحينئذٍ لا مَناصَ من حمل السلاح وإعلان الجهاد لمجابهتهم في حربٍ لا هَوَادَة فيها.

إن الإنسان الكافر الذي لم يؤمن بربّه ويخضع لجبروته ويستسلم لأوامره، قد يَطْغَى في الأرض ويعلو على بني جنسه، وقد يتألّه عليهم كما فعل فرعون والنمروذ، ويستذلّ رقابهم، وقد ينهب خيراتهم وموارادهم ليحصر الثروة في يد فئة من الحاقدين الطامعين الجشعين، وقد يُجَنِّد الجنود ويسخرها ليبطش بالناس ويقهرهم لجبروته وحكمه وسلطانه ـ كما هو مشاهد اليوم في العالم ـ وليفرض عليهم أوامره ونظامه تحت مسمّيات برّاقة كالعولمة، والنظام العالمي الجديد، و لديموقراطية، والانفتاح، والتحرّر، والتمدّن، والرقي، وهي تخفي في طياتها السُمَّ الناقع لشعوب الأرض، وامتصاص دمائهم، وامتهان كراماتهم، وإذلال رقابهم، واستعبادهم، وتركهم شعوباً مقهورة، لا تقوى على العيش الكريم ولا مجابهتهم، وقد دعا اللَّهُ سبحانه عباده المؤمنين إلى عدم القبول بهٰذا الواقع المؤلم المرير، والثورة عليه، وتبديله بالقوة، فَأَمَرَهُمْ بالجهاد، وقتال هؤلاء الطغاة الأشرار، وعدم الاستكانة لهم والخضوع لهم، والقبول بواقعهم الذي يفرضونه بالقوة على شعوب الأرض.

وعلى العكس من ذلك، فإن المسلمين مُطالَبون ليس فقط بقتال الطغاة والجبابرة، ودكّ عروشهم وإزالة باطلهم بل إنهم حملة رسالة وعليهم نشر دين الله الذي يحقّق للبشرية الأمن والرخاء والسعادة، وهٰذا يتطلب جهاداً وقتالاً، وفي سبيل الله، هٰذا الهدف السامي النبيل يسترخص المسلم نفسه وروحه، وينزل إلى ساحات المعارك مستسهلاً الموت، غير خائف ولا وَجِل، يبذلها رخيصة في سبيل مرضاة ربه ونصرة دينه ونشر الحق في الأرض وإزالة الباطل.

14 ــ الجَبَّار

معناه

الذي تَنْفُذُ مَشيئَتُه على سَبيل الإجْبَارِ في كل أَحَدٍ، ولا تَنْفُذُ فيه مَشِيئَةُ أَحَدٍ، فهو المُنَفِّذُ لأوامِره. ويجوز أن يكون معناه مِن جَبَرَ: إذا أغْنى الفقير وأصلح الكَسِير، واللَّهُ جَلَّ جلاله يُصْلِحُ الكسير، ويُغْني الفقير.

والجبَّار، صيغة مبالغة للجابر، مأخوذٌ مِنَ الجبر، وهو في الأصل: إصلاحُ الشيء مع القهر، ومعنى هٰذا الاسم: أن اللَّهَ تعالى كثير الإصلاح للأشياء مع القهر. وقد ورد في موضع واحد من القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: 23].

وقيل في معنى الجبَّار: هو العالي الذي لا شَيْءَ فَوْقَهُ. تقولُ العرب: نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ إذا كانت عالِيَةً طويلةً جداً. وهٰذه صفة لا يليق أن يتّصف بها إلا اللَّهُ عَزّ وجلّ.

أقوال الأئمة فيه

قال الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الشافعي (ت 505 هـ) في كتابه «المقْصِد الأسْنَى في شرح أسماء الله الحُسْنَى» في معنى هٰذا الاسم: (هو الذي تَنْفُذُ مشيئَتُه على سَبيل الإجبار في كل أَحَدٍ، ولا تَنْفُذ فيه مشيئةُ أحد. والذي لا يَخْرُجُ أحَدٌ عن قَبْضَتِهِ وتَقْصُرُ الأَيْدي دون حِمَى حَضْرَتِهِ. فالجبّارُ المُطلق هو اللَّهُ تعالى، فإنه يُجْبِرُ كُلَّ وَاحِدٍ ولا يُجبِرُهُ أَحَدٌ).

وقال الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي (ت 606 هـ) في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذا الاسم: (معناه: الذي يَقْهَرُ العِبَادَ على ما أراد من أمر ونهي، يُقالُ: جَبَرَ الخَلْقَ، وأَجْبَرَهُم، وأَجْبَرَ أكثر، وقيل: هو العالي فوق خَلْقِهِ. و«فَعَّال»: مِن أبْنِيَةِ المُبَالَغَة).

أقوال المفسرين

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي عزَّ كلَّ شيءٍ فَقَهَرَهُ وغَلَبَ الأشياءَ فلا يُنالُ جَنابُهُ لِعِزَّتِهِ وعَظَمَتِهِ وجَبَروتِهِ وكبريائه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿الجبَّارُ المُتَكبِّرُ﴾ أي: الذي لا تَليقُ الجَبْرِيَّةُ إلّا لَهُ، ولا التكبُّر إلّا لِعَظَمَتِهِ، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، عن رب العِزّة جل جلالُه: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي والعَظَمَةُ إزَارِي، مَنْ نازَعَنِي واحداً منهما أَدخَلْتُهُ جَهَنَّم**». معنى «**نازَعَنِي**» أي: تَخَلَّقَ بهٰذا الخُلُقِ فصار في مَعْنَى المشارك لي، وهٰذا وعيدٌ شديد في الكبر، مُصَرَّحٌ بتحريمه، وأما تَسْمِيَتُه رِداءً وإزاراً فَمَجازٌ واسْتِعَارَةٌ حَسَنَةٌ، كما تقولُ العربُ: فُلانٌ شِعارُهُ الزهدُ ودِثارُه التقوى. لا يُريدون الثوبَ الذي هو شِعارٌ أو دِثارٌ، بل معناه: صِفَتُهُ كذا. قال المازِرِيُّ: ومعنى الاستعارة هنا: أنّه الإزارُ والرِداءُ يَلْصُقانِ بالإنسانِ ويَلْزَمانِهِ، وهُمَا جَمَالٌ له، قال: فضربَ ذلكَ مثلاً لكون العِزّ والكبرياء بالله تعالى أحقُّ، وله ألْزَمُ، واقتضاهما جلالُه. ومِن مشهور كلام العرب: فُلانٌ واسِعُ الرِدَاءِ أي: واسِعُ العطيّة.

وقال قتادةُ: الجَبَّارُ: الذي جَبَرَ خَلْقَهُ على ما يشاءُ. وقال ابن جَرِير: الجبَّارُ: المُصْلِحُ أمورَ خَلْقِهِ المُتَصَرِّفُ فيهم بما فيه صلاحُهُم. وقال قتادَةُ: المتكبرُ يعني: عن كل سوء.

أثر هٰذا الاسم في الإنسان

إنّ مَن عَلِمَ أن العِزَّة والكِبْرِيَاءَ والجَبَرُوتَ من صِفَاتِ الله عزّ وجلّ وحده، وَجَبَ عليه أن يَخْضَعَ لربوبيته وجبروته، وأن يُعظِّمَهُ ويُوقِّرَهُ، ويُطيع أوامره وينتهي عما نهى عنه، فهو وحده الإله الرب المعبود، الذي خضعت لجبروته السمٰوات والأرض ومَن فيهن طَوْعاً وكَرهاً، قال الله تعالى في مُحْكَم كتابه الكريم: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا

طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: 9 ـ 11]، أي: ائْتَجِيبَا لأَمْرِي وانْفَعِلَا لِفِعْلِي طائِعَتَيْن أَوْ مُكْرَهَتَيْن. قال الثَّوْرِيُّ، عن ابن جُرَيْج، عن سُلَيمان بن موسى، عن مُجاهِد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال اللَّهُ تبارك وتعالى للسمٰوات: أَطْلِعِي شمْسي وقَمَرِي ونُجُومي، وقال للأرض: شَقِّقِي أَنهارَكِ وأَخْرِجِي ثِمارَكِ ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، واختارَهُ ابن جَرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أَي: بل نَسْتَجِيبُ لكَ مُطِيعينَ بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس، جميعاً مطيعين لك؛ حكاه ابنُ جرير، عن بعض أهل العربية قال: وقيل تَنْزيلاً لهُنَّ مُعامَلَةَ مَن يَعْقِل بكلامهما. وقيلَ: إنّ المُتَكَلِّمَ من الأرض بذلكَ هو مكانُ الكعبة، ومِنَ السَماءِ ما يُسَامِتُهُ منها، واللَّهُ أعلمُ. وقال الحَسَنُ البَصْرِيُّ: لَوْ أَبَيَا عليه أَمْرَهُ لَعَذَّبَهُما عَذاباً يَجِدَانِ أَلَمَهُ، ورواه ابنُ أبي حاتم.

فقد أخبر تَعالى عن عظمته وسُلطانه الذي قَهَرَ كلَّ شيء، ودَانَ له كلُّ شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: 15] فالمؤمنُ يَسْجُدُ لِلَّهِ طَوْعاً وإيماناً وعبادَةً وخضوعاً لأمره، كما يَسْجُدُ كلّ ما في الكون كَرْهاً لِلَّهِ؛ لأنه خَاضِعٌ لِلقوانين الكونية التي خلق الخَلْقَ عليها، من قوانين فلكية، وفيزيائية وكيميائية وبشرية لا تَتَخَلَّفُ في الكائنات، فهي مِن هٰذا القبيل لا تملك تغيير أنظمة الكون التي خلق اللَّهُ الخلقَ عليها، ولا تستطيع مخالفتها والخروج عن أمر الله فيها، وعن سُلطانه وأمره ومُلْكِهِ. فالكافِرُ الذي يعيش بإيجادِ اللَّهِ له وتكوينه إياه، وتحت ألطافه وأرزاقه وتقاديره، خاضِعٌ للهِ كَرْهاً عنه؛ لأنه لا يستطيع الخُروجَ عن مُلكه وسلطانه وقوانينه الكونية، وإن خالف إرادة ربِّه وأوامره له بالطاعة، فهو متروكٌ لاختياره وكَسْبه، ولم يُجْبِرْهُ اللَّهُ جَبْراً على طاعته والإيمان به، بل تركه لاختياره وإرادته، وهو سَيَتَحَمَّلُ نَتيجَةَ اختياره وسعيه وعمله في الآخرة يوم الدين والحساب والجزاء، يوم يحاسِبُ اللَّهُ العِباد، فيُدخِلُ الذين آمنوا في الدنيا طوعاً في رحمته وجنّته، ويُدخل الذين اسْتَكْبَروا عن عبادته، فكفروا به وجَحَدُوه، وعَصَوْه ناراً، وهذا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [صٓ: 28]، وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: 35].

كذلك فإنَّ مَن علم من البشر أنّ صِفاتِ الجَبْر والكِبْرِياء لله تعالى وَحْدَهُ،

تَجنّب الاتّصاف بهٰذِهِ الصفات؛ لأن الله نهى البَشَر أن يتّصفوا بها لما في ذلك من الفسادِ والطُغيانِ، وقد مَقَتَ اللَّهُ العِبادَ الجبّارِينَ على الخلق المُتَكبرينَ عن طاعته، وتوعّدهم بالعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: 23]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

هل الإنسان مُسَيّر أم مخيّر

شُبْهة الجَبْر

هناك من الناسِ مَن إذا سألته: (لماذا تعصي اللهَ؟) فينفي عن نفسه التُهمَةَ ويَتّهمُ اللَّهَ عز وجل فيقول: (اللَّهُ قَدَّر عليَّ المعصية قبل أن يَخلُقَنِي وليس لي دخل فيها)، وهٰذه شُبْهَةٌ تسَيْطر على أفكار كثير من الناس اليوم، وهي شَبْهَة خطيرة لأنها تدفع للحيرة والشك واليأس؛ ولأن فيها اتّهاماً للذات الإلٰهيّة بالظلم، وتعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: 182]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: 44]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]. وهٰذا خطأ في تَفْكِيرِهِمْ ناشِىءٌ عن عقيدة فاسدة، وجهل بالدين، وضعفٍ في الإيمان، وسُوءِ أدَبٍ مع الله، وعَدَم العِلْم بكماله، وبالنشأةِ الإنسانية، وبدورِ الإنسان في الحياةِ ومسؤوليته فيها، وسنحاولُ بيانَ هٰذه الشُبْهَة وإيضاح الحقّ فيها.

ما معنى التَسْيير والتخيير؟

التَسْيير هو مجموعة الأمور التي تمرّ بالإنسان وليس له فيها قَصْدٌ أو إرادة، كالولادة، والموت، والأجل، والرزق، والمرض، والحوادث...

والتخيير هو مجموعة التصرّفات والأعمال التي يفعلها الإنسان بقصده واختياره وإرادته كالإيمان بالله، وتصديق الرسول، وتطبيق أوامر الله وفعل الطاعات، أو الكفر بالله، وتكذيب الرسول، والتمرّد على الله وعصيانه وعدم

طاعته، وارتكاب المحرّمات، والتخطيط للمشاريع التجارية... وحياة الإنسان مليئة بكلا النوعين، والله سبحانه لا يحاسب الإنسان إلا بالأمور المخير فيها.

مهمة الإنسان في الحياة

الإنسان عبدٌ لله، مخلوقٌ لعبادته ومعرفته وطاعته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]، ولكي يستطيع تأدية هٰذا الدور في الحياة فقد جهّزه بعدّة أجْهِزة: كالروح والعقل والتفكير والنفس، ووضع في داخله عدة غرائز، كحبّ الشهوات من المال، والنساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والأملاك، والأراضي، والشركات، والتسَلُّط، وغير ذلك. وحين خلق اللَّهُ الإنسانَ وأهبطه إلى الأرض كلّفه مهمّة استخلافه وحمّله هٰذه الأمانة، وكان تكليفُه على قدر طاقتِهِ وما جهّزه به من أجهزة، ولم يحمّله فوق طاقته: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، وأنزل إليه تشريعاً ينسجم وتكوينه الروحي والجسدي والنفسي والفطري. وجعل الدنيا له دار اختبار وامتحان وابتلاء، والآخرة دار جزاء، فإن وجه إرادته في الدنيا وفق مُراد الله من الإيمان بربه وتصديق رسله، والتزام شرعه وما أُمِر به، والانتهاء عما نُهِيَ عنه، فاز برضوان ربه وجناته، وإن وجه إرادته للكفر والعصيان خسر رضوان ربه واستحقّ عقوبته وناره، والله سبحانه لا يحاسبه إلّا فيما كسبت يداه باختياره وإرادته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، ولا يحاسبه فيما كان فيه مُسَيّراً، فهو لا يحاسِبُه مثلاً على المَرَض، لِماذا مرض، أو الرزق، أو الحوادث التي ألمّت به دون اختياره.

هل تخضع إرادة الإنسان للبيئة التي يعيش فيها ولمؤثرات أخرى؟

يقع الإنسان تحت نوعين من المؤثّرات: داخلية وخارجية. فتكوين الإنسان من جسم وروح، وما فيه من غرائز نفسية، يضع الإنسان أمام مطالب وحاجات متنوعة كثيرة، فالروح بحاجة لطاعات ربها لتسمو، والجسم يتطلّب الطعام والشراب والنوم والراحة وسائر المطالب لينمو ويحافظ على بقائه، والنفس أمّارة بالسوء تأمر الإنسان بالشهوات والملذّات وتستعذب المعاصي والمنكرات، وهذه كلها مؤثرات داخلية تلح على الإنسان وتضغط عليه.

وهناك أيضاً مؤثرات خارجية كثيرة، منها: البيئة التي يتربّى فيها الإنسان ويتلقّى تَوْجِيهَهُ فيها، وهي إمّا أن تكون صالحة أو فاسدة، والظروف الاجتماعية أو النفسية أو الاقتصادية الضاغِطَة التي تدفع الإنسان إلى اتخاذ قراراتٍ ما، كالقتل أو السرقة أو الاحتيال أو التزوير، أو الاختلاس أو التهرُّب، وما شابه ذلك. فهل تُرك الإنسان لهٰذه الضغوطات الداخلية والخارجية؟ أم زوّده الله بعقل وإرادة لاتخاذ القرارات الصحيحة؟

إنّ الله ﷻ زوّد الإنسان بالعقل الذي يميّز به الخير والشر، والذي به يتخذ القرارات النهائية وجعله مناط التكليف، مسؤولاً عمّا يختاره من أمور، وما يتّخذه من قرارات، وأَخْبَرَ الإنسانَ أنه مُراقَبٌ في جميع أحْوالِهِ في الدنيا محاسب في الآخرة، كيلا يشعر أنه في منأى عن الرقيب، وأن ليس هناك مسؤولية تترتب على احتياره يوم القيامة إنْ خيراً فَخَيْرٌ وإن شرّاً فَشَرٌّ. وأضاء له طريق حياته والصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكه، والسبل المعوجّة المنحرفة التي تؤدي إلى هلاكه، ووضع له دليلاً يدلّه على الطريق ويرشده إليه، وإشارات للمرور عند كل مفترق، ما يجب سلوكه وما لا يجب، فأنزل له الكتب والشرائع بواسطة الوحي إلى الأنبياء والرسل، وأنار له سبيل حياته فبيّن له الخير، وحضّه على اتباعه، وبيّن له الشرَّ وحذّره من اتباعه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

إن التفاعُلَ بين المجتمع والفرد، وبين النوازع الداخلية للفرد، حقيقةٌ ثابتةٌ يمكنها أن توجّه إرادة الإنسان، ولكنها لا تُعْدِمُها، ويبقى العقل في كل الأحوال والظروف هو المسؤولُ الأول عن القرار الذي يتّخذه، ومن الأمثلة على ذلك: البيئةُ التي كان يعيش فيها العرب حينَ بُعِثَ النبيُّ ﷺ، فإنها كانت واحدةً، وقد اختار منهم أصحابُ رسول الله الإيمانَ بالله وتصديقَ النبي محمد ﷺ، رغم علمهم بما سيتعرّضون له من تعذيب شديد من أعداء الله، بينما رفض أقوامُهم ذلك. وكم من شابٍّ وفتاةٍ مؤمنَيْن نشآ في بيئة فاسدة آثرا الإيمان بالله واتباع رضوانه على طريق المعاصي...

وكذلك فإن النوازع الداخلية قد أوجدها الله في كل إنسان، ولكننا نشاهدُ المُؤمِن يَكْبَحُ جَماحَ نفسِه، ويَرْدَعُها عن غيّها، ولا يستجيبُ لكل مطاليبها

ويجاهدها فيما تتطلّبه من معاصي للّه، وفواحشَ ومُنكراتٍ، مُسْتَشْعِراً رقابة ربّه، خاشياً له سبحانه، راجياً ثوابه، وطامعاً برضوانه ومحبّته، بينما يستسلم لها ضعيفو الإرادة الذين استعذبوا المعاصي، وانجرفوا وراء وساوس الشياطين، واستجابوا لنداء النفس الأمارة بالسوء، فعطّلوا إرادتهم واتّبعوا أهواءهم، فلم يستشعروا رقابة ربّهم، ولم يخافوا عقابه، ولم يخشوا عذابِهِ، وأعمَوا أبصارهم عن الحق، وهٰؤلاء يتحمّلون نتيجة قرارهم بدون شك وهذا من عدل اللّهِ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 37 ـ 41] ولا يستوي المؤمن الطائع مع الفاسق العاصي، وإلّا فما معنى التكليف؟

لقد جعل الله الدنيا دار ابتلاء وتكليف وامتحان، والآخرة دار حساب وجزاء، والإنسانُ يعيش في الدنيا كالطالب في المدرسة أو الجامعة، فإذا أمضى عامه بجدّ واجتهاد وسهر وتعب نجح، وإذا أمضى عامه باللعب واللهو، والانجراف وراء شهوات نفسه وتكاسَلَ، رَسَبَ وفَشِلَ، فهل يحقّ لهٰذا الطالب الفاشل أن يتّهم إدارة المدرسة بترسيبه ويحملها مسؤولية فشله؟ إنه إذا فعل ذلك يكون مخطئاً بدون شك؛ لأنه يُوجِد المبرّرات لكسله، والإنسان بطبيعته يميل لتبرير تصرّفاته، ودَفْع التهمة عن نفسه واتّهام غيره، بينما هو في قرارة نفسه يعلم أنه هو المسؤول عن فشله ومصيره، ولكن شتان بين اتهام إدارة مدرسةٍ بالظلم، واتّهام رب العالمين جلّ جلالُه! فإن هذا من أكبر الكبائر وأعظم المفتريات، ويُوجِبُ مَقْتَ الربّ وغَضَبَهُ على هٰذا العبد اللئيم، الذي ظلم نفسه، ويريد أن يلقي باللائمة على ربّه سبحانه، تبريراً لكسله وفسقه وفجوره وتقصيره: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: 17 ـ 23].

والخلاصة: أن طريق السَيْر إلى الله تعالى محفوف بشتّى الدواعي الصارفة عنه، ومليء بكثير من العوائق التي مِن شأنها أن تُتْعِبَ السالِك من حظوظ النفس وأهوائها، وضغوطات المجتمع والظروف الخارجية، والحكمة من ذلك أن يكون انقياد الإنسان لأوامر الله مصحوباً بجهد يستأهل عليه الأجر، وإنما الجهد أن يقتحم عقبة الصراع مع إبليس ونفسه، والضغوطات الخارجية، ويجتازها إلى

تنفيذ أوامر الله، وهذا ما يجعل المؤمن الذي جاهد نفسه والتزم أوامر الله عز وجل أعلى درجة من الملائكة؛ لأنهم لا يقدرون على المعصية.

15 ــ القَهّار

أي: الذي قَهَرَ الجَبَابِرَة، فَقَصَمَ ظهورَهُم، والكُلُّ مُسَخَّر تحت سلطانه خاضِعٌ له شاء أم أَبَى. والقَهّار: صيغة مبالغة، مأخوذ من القَهْر، وهي الغَلَبَة، فمعنى هٰذا الاسم: أن اللَّهَ سُبْحانَه يُنَفِّذُ مَشيئَتَه في خلقه بالقهر والسلطان. قال اللَّهُ سبحانه في محكم كتابه المبين: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4]، أي: تعالى وتَنَزَّه وتَقَدَّس عن أن يكون له ولد. فإنه الواحد الأحد، الفَرْدُ الصمَدُ، الذي كلُّ شَيْءٍ عَبْدٌ لَدَيْهِ، فقير إليه، وهو الغنيُّ عمّا سِواه، الذي قهر الأشياء فدانَتْ له وذَلّت وخَضَعَتْ تبارك وتعالى.

وقد ورد هٰذا الاسم في ستة مواضع من القرآن الكريم، **أحدها**: هٰذا الذي ذكرناه، **والثاني**: في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: 39]، حيث خاطب النبي يوسف عليه السلام الفَتَيَيْن داعياً إيّاهما إلى عِبادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وخَلع ما سِواهُ من الأوثان التي يَعْبُدها قَوْمُهما فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: الذي ذَلّ كلُّ شيء لَعِزّ جلالِهِ وعَظَمَةِ سلطانه.

والموضع الثالث

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: 16] يُقَرِّرُ اللَّهُ تعالى أنه لا إله إلّا هو، وأن الذين عبدوا آلهةً سوى الله لا تملِكُ لأَنْفسُها ولا لعابديها نفعاً ولا ضَرّاً، أي: لا تحصّل لهم منفعةً، ولا تدفَعُ عنهم مَضَرّةً، فهل يستوي من عبد هٰذه الآلهة مع الله، ومَن عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَه لا شريك له فهو على نورٍ مِن ربه؟ ثم يُسائِلُ هؤلاء المشركين الذين جَعَلُوا مع الله آلهة تناظِرُه وتماثله في الخلق فخلقوا كَخَلْقِهِ فتشابَهَ الخَلْقُ عليهم،

فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوقٍ غيره، أي: ليس الأمرُ كذلك، فإنه لا يشابهُه شيء ولا يماثِلُه نِدٌّ له ولا عَدْلَ له ولا وزير ولا ولد ولا صاحِبَة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: 43]، فالجميع عبيد عنده، فَلِمَ يَعْبُدُ بَعْضُهُم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل مجرَّد الرأي والظنون، واللَّهُ قد أرسل الرسُلَ تزجرهم عن ذلك وتنهاهُم عن عِبادَةِ مَن سِوَى الله، فكذّبوهم وخالَفُوهم، فَحَقَّت عليهم كلمةُ العذاب لا محالة، ثم أمر نبيَّه ﷺ أن يُبَيِّن لهم أن اللَّهَ هو خالقُ كلِّ شيءٍ المستحقّ للعبادة وحده؛ لأنه القاهر الذي خضع جميع ما في الكون لسلطانه.

والموضِعُ الرابع

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: 47، 48]. يقولُ تعالى مقرِّراً لوعده ومؤكّداً نصرة رسله في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنّه ذو عِزَّةٍ لا يَمْتَنِعُ عليه شيْءٌ أراده، ولا يغالَبُ، وأنه ذو انتقام ممّن كفر به وجحد، وَوَعْدُه هٰذا حاصِلٌ يوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض، وفي حديث الصور المشهور عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُبَدِّلُ اللَّهُ الأرضَ غيرَ الأرضِ والسمٰواتِ، فيبسطها ويمدّها مدَّ الأديم** ـ أي: الجلد ـ **العُكاظي، لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً، ثم يَزْجُرُ اللَّهُ الخَلْقَ زَجْرَةً، فإذا هم في هٰذه المُبَدَّلَة**» وقوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: خَرَجَتِ الخلائِقُ جميعُها مِن قُبُورِهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ وغَلَبَهُ ودانَتْ لَهُ الرِقابُ وخَضَعَتْ له الأَلْباب.

والموضع الخامس

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ﴿٦٦﴾﴾ [ص: 65، 66]. يقول تعالى آمِراً رسوله ﷺ أن يقولَ للكفّار بالله المشركين به المكذّبين لرسوله: إنما أنا مُنذِرٌ، ولستُ كما تَزْعُمُونَ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: هو وحده قد قهر كلَّ شَيْءٍ وغَلَبَه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: هو مالِكُ جميعُ ذلكَ ومُتَصَرِّفٌ فيه

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ﴾، أي: غَفَّارٌ للمؤمنين مع عَظَمَتِهِ وعِزَّتِهِ.

والموضع السادس

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: 15، 16]. يقول تعالى مُخْبِراً عن عظمته وكبريائه وعَرْشِه، ثم يقول: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، كقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: 2] وكقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: 193، 194] ولهذا قال ﷻ: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (يومُ التَّلاقِ: اسْمٌ مِن أَسْمَاءِ يوم القِيَامَةِ حَذَّرَ اللَّهُ مِنْهُ عِبَادَهُ). وقال ابنُ جُرَيجٍ، قال ابنُ عَبَّاسٍ: (يلْتَقِي فيه آدَمُ وآخِرُ ولده). وقال ابنُ زيد: (يَلْتَقي فيه العبادُ) وقال قَتادَةُ، والسُّدِّيُّ، وبلالُ بن سَعْدٍ، وسُفيانُ بن عُيَيْنَةَ: (يلتقي فيه أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ والخالقُ والمَخْلُوقُ). وقال مَيْمُونُ بن مِهْران: (يَلْتَقِي الظالِمُ والمَظْلُومُ). وقد يُقالُ: إن يومَ التَلاقِ يَشْمَلُ هذا كُلَّهُ وَيَشْمَلُ أَنَّ كلَّ عامِلٍ سَيَلْقَى ما عَمِلَهُ مِن خَيْرٍ وشرٍّ كما قاله آخرون. وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، أي: ظاهِرُونَ بادُون كُلُّهُم لا شَيْءَ يُكِنُّهم ولا يُظِلُّهم ولا يَسْتُرُهم، مع أن الجميعَ في علمه على السَواءِ عَلِمَ الجميعَ، وما عَمِلَ كلُّ واحِدٍ منهم من خَيْرٍ أو شَرٍّ، وقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. جاء في حديث الصور أنه عَزَّ وجلَّ إذا قَبَضَ أَرْوَاحَ جَميع خلقه فلم يَبْقَ سِوَاهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، حِينَئِذٍ يقولُ: «**لِمَنِ المُلْكُ اليومَ؟**» ثلاثَ مَرّاتٍ، ثم يُجيبُ نَفْسَهُ قائلاً: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، أي: الذي هو وَحْدَهُ قد قَهَرَ كُلَّ شيءٍ وغَلَبَهُ.

أقوال العلماء في تفسير هٰذا الاسم

قال حُجَّةُ الإسلام أبي حامِد محمد بن محمد بن محمد الغزالي في كتابه «المَقْصدِ الأسنى»: (هو الذي يَقْصِمُ ظهر الجبابِرَة مِن أعدائه فيقهرهم بالإماتةِ

والإذلال. بل الذي لا مَوْجُودَ إلّا هو مُسَخَّرٌ تحتَ قَهْرِهِ وقُدْوَتِه، عَاجِزٌ في قبضته). وقال الإمام مجد الدين ابن الأثير الجزري في كتابه «النهاية في غريب الحديث» **القاهِرُ**: هو الغالب جميع الخلائق، يُقال: قَهَرَهُ يَقْهَرُهُ قَهْراً فهو قاهِرٌ، وقهّارٌ للمبالغة.

أثر هذا الاسم في العبد

إنّ من عَرَف ربَّه أنه قَهّارٌ غَلّاب لجميع مخلوقاته خضع لقهره عن طَواعِيَةٍ واختيار، ورضي بطاعته ولم يستكبر ويتمرّد على ربه، لعلمه أنه عَبْدٌ مخلوق، وظيفته العبودية والطاعة.

بين إرادة الله وإرادة الإنسان

هناك شُبْهَةٌ تدور فِي أذهان بعضِ المُشَكِّكين، يقول بعضُهم: إن اللَّهَ يَعْلَمُ أزلاً أنّ فلاناً من الناس إنْ خَلَقَه وامْتَدَّ به الأَجَلُ سَيَرْتَكِبُ المُوبِقات، فلماذا خَلَقَهُ وهو يَعْلَمُ أنه سَيَرْتَكِبُ ما لا يُرضيه، وسَيَتَعَرَّض بسبب ذلك لسخط اللَّهِ وعقابه ونيرانه؟

إنّ هٰؤلاء يَفْهَمُونَ القضاءَ والقَدَرَ على خلافِ حَقيقَتِهِ، فيظنّون أن معناه: حكمُ اللَّهِ على عبادِه بما شاءَه لكلٍّ منهم، بحيث لا يَبْقَى مع حكمه في حقّهم أيُّ إرادةٍ لهم أو اختيارٍ. وهٰذا الفهمُ الباطِلُ لم يَقُلْ به أَحَدٌ مِنْ عُلماءِ العقيدة مِن أهلِ السُنّة والجماعَة، ولا يَسْتَنِدُ إلى أيّ نصٍّ أو دليل، ولعلَّ مصدرَ هٰذا الخطإ ما هو ثابتٌ أن معنى القضَاءِ في اللغةِ: الحُكْمُ، يُقالُ: قَضَى الحاكمُ بكذا، أي: حَكَمَ به، فظنَّ كثيرٌ من الناس أن هٰذا المعنَى اللُّغَوِيَّ يَنْسَحِبُ على القضاء بمعناه الاصطلاحي هنا، فَفَهِمُوا من ذٰلكَ الحكمَ المُلْزِمَ الذي يقضي على اختيار الإنسانِ وإرادته. فما هو المعنَى السليمُ للقضاء والقدر إذن؟

إن الإيمانَ بالقضاءِ والقدرِ ركنٌ مِن أركان الإيمان يختلُّ الإيمان بدونه، ودليله ما أخرجه الشيخان عن عمرَ بن الخطّابِ ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال في حديث جبريل حينما سأله: ما الإيمان؟ قال: «**أن تُؤْمِنَ باللَّهِ وملائكته وكتبه ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ وبالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرّه**». وقد علمنا أن مِن صفات الكمال لله

تعالى صفةَ العلم، والإيمان بالعلم يستلزم الإيمان بالقضاء والقدر.

أما القضاء: فهو عِلْمُ اللَّه عَزّ وجلَّ في الأَزَلِ بالأشياءِ كُلِّها على ما ستكون عليه في المُسْتَقْبَل، ومِن ذلك سائر تصرّفات الإنسانَ الاختيارية والقَسْرِيّة، وأما القَدَرُ: فهو ظُهورُ تلكَ الأشياءِ بالفِعْلِ طِبقاً لعلمه الأزلي المتعلّق بها. يقول الإمام النوويُّ في «شرحه على صحيح مسلم» قال الخطّابي: وقد يَحْسِبُ كثيرٌ من الناس أنّ معنى القضاء والقدر: إجبارُ اللَّهِ سبحانه وتعالى العَبْدَ وقَهْرُهُ على ما قضاهُ وقدَّره، وليس الأمرُ كما يتوهَّمون، وإنما معناه: الإخبارُ عن تقدُّمِ علمِ اللَّهِ سبحانه وتعالى بما يكونُ مِن أكْسَاب العَبْدِ وصُدورِها عن تقديرٍ منه.

ويقُول ابنُ حَجَرٍ الهيثميُّ في كتابه «فتح المُبين بشرح الأربعين» النووية، في شرحه لحديث عمر المتقدّم: والقضاءُ عِلْمُ اللَّهِ أوّلاً بالأشياء على ما هي عليه، والقَدَرُ إيجادُه إيّاها على ما يطابقُ العِلْمَ. فالعِلْمُ إذن صِفَةٌ كاشِفَةٌ وليستْ صِفةً مُؤثّرة على عكس من توهَّم أنَّ القضاءَ حُكمُ اللَّهِ على الإنسانِ، والجوابُ على شبهتهم من وجْهَيْن:

الوجه الأول: أن اللَّهَ خلق الإنسانَ حُرًّا يتصرَّفُ كيف يشاء، وهٰذه الحرّيَّةُ هِبَةٌ كبيرة ونِعمةٌ أنعمَ اللَّهُ بها على الإنسان، وهٰذه النعمة مستقلَّةٌ عما يمكن أن يختاره الإنسانُ بمُقْتَضَى هٰذه النعمة، فإذا قَصَدَ الإنسانُ الشَرَّ وعَزَمَ عليه واختاره، فإن اختياره هٰذا لا يُلغِي النعمة التي متّعه الله بها. ومِن ثَمَّ فإنّ اللَّهَ لا يتحمّل جريرَة السوءِ الذي اختارَهُ الإنسانُ بمحضِ رغبته وإرادته، أي إن اللَّهَ لا يوصَفُ بأنه هو المُتلَبِّس بذلك السوء؛ لأنه مَنّ على الإنسانِ بِنَعْمَتَيْ الوجود والاختيار، بل إن صاحبَ هاتين النعمتين هو المسؤولُ عن تسخيرهما للشرّ الذي اختارَهُ بنفسه.

الوجه الثاني: الذي يُجاب به أصحابُ هٰذه الشبهة، أنّهم يُخَيَّلُ إليهم أنَّ الكونَ الذي خلقه اللَّهُ تعالى كان ينبغي أن يكون خالياً عن الشرور والآثام، ولكي يكون كذلك لا بُدَّ أن يختارَ للوجودِ والعيش فيه مَنْ عَلِمَ أنّهم لن يتّجهوا باختياراتهم إلّا إلى الخير الذي يُفيدهم ويُفيد الآخرين... غير أن الكونَ لو سار على الخير وحده لكان الناسُ كالملائكة، ولخلا مِنَ الحكمة، ولَبَطل معنى

التكليف الذي شاءَ اللَّهُ بحكمته أن يَخْلُقَ الإنسانَ عليه، ولَبَطَلَ بناءً على ذلك الأجرُ والثواب والعقاب، ولما تحقّق قولُ الله عزّ وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: 1 ـ 2]، وقوله ﷻ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20]. إذْ لا معنى للابتلاء والاختبار إذا لم يكن هناك خير وشرّ، وانحراف واستقامة، ولم يكن ليوم الجزاء معنى.

لقد قضى اللَّهُ ﷻ أن يُشَرِّفَ الإنسانَ بالتكليف، وأن يؤهِّلَهُ بذلك للمثوبة والأجر، والتكليفُ يستدعي الكُلْفَةَ والجَهْدَ، ولا يتحقّق كلٌّ منهما إلّا إنْ جابَه الإنسانُ غرائزه وأهواءه، وتسلّح بحبّ الخير والحق والإحسان، وتُرك يختار ما يشاء، وهٰذا لا يَتمُّ إلا إذا وُجدَ أمامه الخيرُ والشرُّ، فعندئذٍ يتكامل في كيانه معنى التكليف الذي شَرّفه الله به. إنّ الله سبحانه سخّر للإنسان ما في السمٰوات والأرض: من الأطعمة المختلفة الألوان والطعوم، ومن المعادن والجبال وما فيها، والغابات وما فيها، والبحار وما فيها، والأنهار وما فيها، والأدوات المُنْبَثَّة حول الإنسان في كل مكان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾ [لقمان: 20]. وزوّده بمشاعر نفسيّة كَحُبِّ التملُّك، وعلّمه ما لم يَكن يعلم من العلوم التي هي مفاتيحٌ لكلٍّ مِنَ الخير والشّر، وجَهّزه بالعَقْلِ المُمَيِّز بين الخير والشّر بقوّة وإرادة على اتخاذ القرارات، فإن أخضع إرادته لإرادة اللَّهِ وعمل صالحاً فَبِجُهْدِهِ وسعيه، وإن أَفْسَدَ في الأرض وارتكب الشرور فبِتَصَرُّفِهِ وسُوءِ استعمالِهِ لما وَضَعَهُ اللَّهُ تحت يَدِهِ، وأنعم به عليه، وهٰذا هو الابتلاءُ المقصود في الآية الكريمة: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35].

واللَّهُ سبحانه وتعالى نَهَى عن الإفْسَادِ فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]، وبيَّن لنا أن هُناك صِنْفاً من الناس مُفْسِدينَ وأنه لا يُحِبُّ الفَسَادَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا

قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴿٢٠٦﴾. [البقرة: 204 ـ 206]. فَخَلْقُ اللَّهِ للإنسان الذي يُمارِسُ باختياره الفعلَ القَبيحَ لا يَسْتَوْجِبُ نِسْبَةَ القُبْحِ والشرِّ والفَسَادِ إلى اللَّهِ ﷻ، وتعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً إذْ ليس بينهما أيَّ ترابُطٍ أو لزوم.

إذن فخالِقَ كُلِّ شيءٍ هو اللَّهُ، وهناك فَرْقٌ بين أن يَخْلُقَ اللَّهُ الإنسان ويضع تحت تَصَرُّفه ما في الكون فيُسِيءُ هٰذا الإنسان في استخدام هٰذه النِعْمَةِ، نعمة حُرّيّة الإرادة ونَعمة تسخير ما في الكون ليصدُرَ عنه الشَّرُّ، وبين نِسْبَةِ الشَرِّ لِلَّهِ، تعالى عن ذلك؛ لأنّ فاعِلَهُ والمُتَلَبِّسَ به هو الإنسانُ، وإنْ كان اللَّهُ قد أَقْدَرَهُ على دلك نَعْمَةً منه وفضلاً، ولكنه أساء استخدامَ هذه النعمة، وهو المسؤول عن تصرّفاته وكَسْبِه، وسيحاسب عليه.

إن على الإنسان أن يُجاهد نفسه الأمّارة بالسوء، ولا يستسلم لرغباتها وشهواتها، فإنه إن فعل ذلك، فتح الله له باب الهداية ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: 69].

16 ــ القَيُّومُ

معناه

القَيُّوم: هو القائِمُ بنفسه، المُقِيمُ لغيره، إذْ إنَّ الكائناتِ بحاجةٍ في استمرار بقائها وقيامها في وضعها من الوجود إلى الخالق الذي يُقيمها، ويرعاها بالحفظ، واللَّهُ هو المُقيمُ وَالحافظ لها، والمُؤَمِّن لها مِنَ المَخَاوِف، والمُهَيْمِن عليها.

والقَيُّومُ: صِيغَةُ مبالغة من القائِم، ومَعناه: القائِمُ بِنَفْسِه، الذي لا يحتاجُ إلى شيءٍ، والمُقِيمُ لغَيْرِهِ، فهو القائم بتدبير خَلْقِهِ. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]. فأخبر تعالى بأنه المنفردُ بالألوهية لجميع الخلائق الحيُّ في نفسه الذي لا يموت أبداً، القَيِّمُ لغيره، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمره كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: 25].

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، في سُوَر: البقرة، وآل عمران، وطٰه.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنّ الاسم الأعظم: (الحيّ القَيُّوم)، فقد أخرج الإمام أحمد بسنده إلى أسماءَ بنتِ يزيد بن السكن ﵂ قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: 255] و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 1، 2]: «**إن فيهما الاسمَ الأعظَمَ**» وكذا رواه أبو داود، والترمذيُّ وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه.

وأخرجَ ابن مَرْدَوَيْه في تفسيره عن أبي أُمامَةَ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسمُ اللَّهِ الأعظمُ الذي إذا دُعِيَ به أجاب في ثلاث سور: البقرة، وآل عمران، وطه**». قال هشام بن عمّار خطيب دمشق، وهو راوي الحديث: أما البقرة فـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: 255]، وفي آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 1، 2]، وفي طٰه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طه: 111].

أقوال العلماءِ في تفسيره

يقول الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (القَيُّوم: من أَسْمَاءِ اللَّهِ تعالى المَعْدُودة، وهو القائِمُ بنفسه مُطلقاً لا بِغَيْرِهِ، وهو مع ذلك يقوم به كلُّ مَوْجُود، حتى لا يُتَصَوَّرُ وُجُودُ شيء ولا دوامُ وُجودِهِ إلّا به، وفي حديث الدعاء المُتَّفَقِ عليه عند الشيخين البخاري ومسلم: «لك الحمدُ أنتَ قَيُّوم السمٰوات والأرض»، وفي رواية: «قَيّام»، وفي أخرى: «قيِّم»، وهي مِن أَبْنِيَة المبالغة، وأصلها من الواو (قَيْوُوم) بوزن (فَيْعُول)، و(قَيْوَام) بوزن (فَيْعَالَ)، و(قَيْوِم) بوزن (فَيْعِل). ومنه حديث: «**حتى يكونَ لخمسينَ امرأةً قَيِّمٌ واحدٌ**» (أخرجه الطبراني) ومعناه هنا: زوج، وقَيِّم المرأةِ: زوجُها؛ لأنه يَقومُ بأمْرها وما تحتاج إليه». ومنه أيضاً حديث: «**ما أفلح قَوْمٌ قَيِّمُهم امرأة**») (أخرجه أحمد وصحّحه ابن حجر العسقلاني في الفتح).

أما حجةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي فيقولُ في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الأشياء تفتقر إلى محلٍّ كالأعراض والأوصافِ فيقالُ فيها: إنها ليست قائمةً بأَنفُسِها. وما لا يحتاج إلى مَحَلٍّ فيُقالُ: إنه قَائِمٌ بنفسه كالجواهر. إلا أن الجوهر وإن كان قائماً بنفسه مُسْتغنياً عن مَحَلٍّ يَقومُ به، فليس مُسْتَغْنياً عن أمور لا بُدَّ منها لوجوده، وتكون شرطاً في وجوده، فلا يكون قائماً بنفسه؛ لأنه يَحتاج في قوامه إلى وُجود غيره، وإن لم يَحْتَج إلى مَحَلٍّ.

فإن كان في الوجود من يكتفي ذاتُه بِذاتِهِ، ولا قوامَ له بغيره، ولا يُشْتَرَطُ في دَوام وجودِه وجُودُ غيره، فهو القائمُ بنفسه مُطلقاً، فإن كان مع ذلك يقومُ به كلُّ مَوْجُودٍ، حتّى لا يُتَصَوَّرَ للأشياءِ وُجودٌ ولا دَوَامٌ إلّا به فهو القَيُّومُ؛ لأن قَوامَهُ بذاته، وقوامَ كلِّ شيءٍ به، وليسَ ذلك إلّا لِلَّهِ تعالى.

ومدخَلُ العبد في هٰذا الوصفِ بقَدرِ استغنائه عمّا سِوَى الله تعالى). انتهى كلام الغزالي.

أثر هذا الاسم على الإنسان

إن الذي يؤمن بأن الله وحده هو قيُّومُ السمٰواتِ والأرض، قائم بتدبيرهما وحفظهما، أراح باله من العناء والاضطراب النفسي، والقَلَقِ المُزْعِج المُكَدِّر لعيش وصفائه، وعَلِمَ أن رزقه ومستقبله وقوته وحياته، بيد قَيّوم السمٰوات والأرض الذي لا تقوم السمٰوات والأرض إلّا بأمره، فاطمأن إليه والتجأ لحماه، ولاذَ بجنابه، وطرق بابه، ولم يطرق باب سواه من المخلوقين العاجزين عن تدبير أنفسهم، فكيف بتدبير غيرهم؟ وَتَوَكَّلَ على اللَّهِ وَحْدَهُ، قال الله تعالى آمراً عباده بالتوكل عليه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: 58]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51]. وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]. وَوَعَدَ من توكَّل عليه بكفايته جميع أموره وحاجاته وتسخير الكون له فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3]. وأمر عباده بتفويض أمورهم إليه لأنه وحده البصير بالعباد، والعالم بأحوالهم،

والقادر على إجابة دُعَائِهُم وحاجاتهم ومطالِبِهِم قال تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: 44].

ورَوى الإمام أحمد، والنسائيُّ، والتِّرمذي، والحاكم، وصحّحاه عن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَو تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كما يَرْزُقُ الطَيْر، تَغْدُو خِماصاً** ـ أي تُصْبِحُ جائعةً ـ **وتَرُوحُ بِطاناً**» ـ أي ترجع مساءً إلى أوكارها ملأَى البطون.

وروى الشيخان البخاريُّ ومسلمٌ، عن النبي ﷺ: «**يَدْخُلُ الجَنَّة سَبْعُونَ أَلْفاً مِن أُمَّتي بغير حِسَاب**» قيلَ: مَن هُمْ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: «**هم الذين لا يَرْقُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرون، ولا يَكْتَوون، وعلى ربّهم يتوكَّلُون**»، يعني: هم الذين كمل إيمانهم بالله، ولم يعلق فيهم شيءٌ من أمور الجاهلية واعتقاداتها من الرقى والتمائم لما فيها من الشرك، وكالتشاؤم فإنه يُنافي الإيمان، فالتوكُّلُ من لوازم كمال الإيمان؛ لأن معناه: الاعتمادُ على الخالق دون رؤية الخلائق، فَمَن توكل على الله كفاهُ، ومَنِ انقطع إليه آواه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ﴾ [الزمر: 36]. والتوكل هو تركُ تدبير النفس، والانخلاعُ من الحولِ والقُوَّةِ، بأن لا يرى الإنسانُ لأحَدٍ حيلةً ولا قوَّةً إلا بالله العلي العظيم.

بين التوكُّلِ والتَّواكُل أهمية العمل في الإسلام

معنى التواكُل

إنّ مِن الناس مَن يَتْرُكُ العَمَلَ والسَعْيَ المَأْمُورَ به بِدَعْوَى التَوَكُّل على اللَّهِ، والزُهْدِ في الدنيا، وانتظارِ الرِزْقِ والنصر من اللَّهِ، ويقولون في أنفسهم: بما أنّ اللَّهَ هو الحيُّ القَيُّومُ القائِم بتَدْبير أُمورِ عِبادِهِ، واسْتِجَابَةِ دُعائِهم، الغنيُّ الذي بيده ملكوتُ السمٰوات والأرض وخَزَائِنُهَما، القويّ القادر على كل شيء، والذي لا يَنْسَى من فضله أحداً، فَلْنَتْرُكِ الأمرَ إليه، ولنعتمد عليه وحده، فهو يرزقنا ويكفينا، وينصرنا على أعدائنا.

معنى التوكُّل

هٰؤلاء قومٌ أخطأوا فَهمَ الإسلامَ، ومعنى التوكُّل على اللَّه والزهد في الدنيا؛

لأنهم تركوا العَمَلَ والسَعْيَ، واكتفوا بالدُّعَاءِ وحسن الظنّ بالله سبحانَهُ وتعالى، إن التوكُّلَ على الله لا يعني بأي شكل من الأشكال تركَ العملِ، وعَدَمَ الأَخْذِ بأسبابِ الرزق، بل على العكس من ذلك تماماً، فهو يعني: الأخذَ بالأسباب، والسَعْيَ في طلب الرزق، ولكنه يحذّرُ من الاعتقادِ بأنّ هٰذا السَعْيَ هو الجالِبُ للرزق، فيعتمد على سعيه ويَعتدُّ به، وهذا الاعتقاد فاسِد، والاعتقاد الصحيح هو أن يتيقّن الإنسانُ أن الجالبَ للرزق بعد السَّعْي هو اللَّهُ سبحانه وتعالى. فَعَلَى الإنسانِ أن يَسْعَى في طلبِ الرزقِ مع الاعتقاد بأن اللَّهَ هو الرزَّاقُ، واللَّهُ سبحانه وتعالى حينما يرى عَبْدَه قد سَعَى واستنفذ وُسْعَه في السَعْي وهو مُعْتقِدٌ أنّ الرزّاقَ هو اللَّهُ سبحانه وتعالى، أعانه ووفّقه ورزقه. أما أن يَقْعُدَ ويتكاسل ويتواكل، ويقول: إن اللَّهَ هو الرزّاق، فلن ينال إلا الخَيْبَة والفشل، قال الله عزّ وجَلَّ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: 39، 40]. وقد حضّ اللَّهُ على العَمَلِ فقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: 105].

لقد اقتضت سُنَّةُ اللَّهِ في الخلق أن الأرزاقَ التي ضمنها لِخَلْقِهِ، والأَقْواتِ التي قَدَّرَها، والمعايشَ التي يَسَّرَها لا تُنالُ إلّا بَجُهدٍ يُبْذَلُ، وعمل يؤدَّى، ولهٰذا رَتَّبَ اللَّهُ سُبْحَانه وتعالى الأكلَ مِن رزْقِه على المشي في مَناكِبِ أَرْضِهِ فقال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]. فَمَن مَشَى أَكَلَ، ومَن كان قادراً على المَشْي ولم يَمْشِ كان جديراً ألّا يأكُلَ.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]. فمن سَعَى وانتشر في الأرض مُبْتَغياً فَضْلَ اللَّهِ ورِزْقَهُ، كان أَهْلاً لأن يَنالَ منه، ومَن قَعَدَ وتكاسَلَ، كان جديراً بأن يُحْرَمَ.

رُوِيَ أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ رأى بعد الصلاة قوماً قابِعِينَ في المسجد، بدعوى التوكُّل على اللَّهِ فقال: مَنْ أنتُم؟ فقالوا: نحن نتوكَّل على اللَّهِ، فضربَهُم بدُرَّتِهِ وقال: لا يَقْعُدَنَّ أَحَدُكُمْ عن طلبِ الرِزْقِ ويقولُ: اللهمَّ ارزُقْني، وقد عَلِمَ أنّ السماءَ لا تُمطِرُ ذهباً ولا فِضَّة.

ويُرْوَى أن شقيقاً البَلْخِيّ ـ وهو أَحَدُ الصالحينَ ـ سافر في تجارة يَبْتَغِي من

فضل الله، وَوَدَّع صاحِبَهُ إبراهيمَ بنَ أدْهَمَ، ولم تَمْضِ أيامٌ قليلةٌ حتى عادَ شقيق وقطع سفره، ورآهُ إبراهيمُ في المسجد، فقال له مُتَعَجِّباً: مَا الذي عَجَّل بَعَوْدَتِكَ؟ قال شقيقٌ: رأيتُ في سَفَرِي عجباً، فَعَدَلْتُ عن الرِحْلَةِ، قال إبراهيمُ: خيراً، ماذا رأيتَ؟ قال شقيقٌ: أَوَيْتُ إلى مكان خَرِبٍ لأَسْتَرِيحَ فيه، فَوَجَدْتُ به طائراً كسيحاً أَعْمَى، وَعَجِبْتُ وقُلْتُ في نفسي: كيف يعيش هذا الطائر، وهو لا يُبصِرُ ولا يتحرّك؟ ولم أَلْبَثْ إلّا قليلاً حتى أَقْبَلَ طائِرٌ آخرُ يَحْمِلُ لهُ الطعامَ في اليوم مَرَّاتٍ حتى يَكتَفِي، فقلتُ: إن الذي رزق هٰذا الطيرَ في هٰذا المكان قادِرٌ عَلى أن يَرزُقَنِي، وعُدْتُ من ساعتي. فقال إبراهيم: عجباً لك يا شقيق! ولماذا رضيتَ لِنَفْسِكَ أن تكونَ الطائِرَ الأَعْمَى الكَسِيحُ الذي يعيشُ على مؤنَةِ غيره، ولَمْ ترضَ أن تكون الطائِرَ الآخَر الذي يَسْعَى على نفسه وعلى غيره من العِميانِ والمُقْعَدِينَ؟ أما عَلِمْتَ «**أن اليَدَ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليد السُفْلَى؟!**» فقامَ شقيق إلى إبراهيمَ وقبَّلَ يَدَهُ وقال: أنتَ أستاذُنا يا أبا إسحاق، وعاد إلى تجارته.

وقد استدلَّ بعضُ المُتَواكِلين القاعدين بحديث النبي ﷺ: «**لو توكَّلتم على الله حَقَّ توكُّلِهِ لَرَزَقكم كما يَرْزُقُ الطيْرَ، تغدو خِماصاً، وتروح بِطاناً**». والحديثُ نفسُه حُجَّةٌ عليهم، إذْ إنَّ اللَّهَ لم يضمن لها الرزق إلّا بعد غُدُوِّها. والغُدُوُّ: هو الخروج في الغَدْوَةِ لطلب الرزق، وفيه تنبيه على السعي واتخاذِ الأسباب، إذْ لا مكان في الحياة للكسول الخامِل.

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقولُ فيمن جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعملُ شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هٰذا رجل جَهل العلم، أما سمع قولَ النبي ﷺ: «**جُعِلَ رِزْقي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**»؟ وكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يَتَّجِرُونَ في البَرِّ والبَحْرِ ويعملون في نخيلهم، والقُدْوَةُ بهم. وقد جاهد الرسولُ ﷺ أعداءَهُ، فخاضَ سبعاً وعشرين معركة ما بين سَرِيَّةٍ وغزوة، وكان اللَّهُ قادراً على نصرة دينه وهداية الناس بدون سَعيٍ وجهادٍ من رسولِ اللَّهِ ﷺ مدّة ثلاثٍ وعشرين سنة، مَليئةٍ بالكفاح، والجهاد، والعمل، والسعي، وأمر عباده المسلمين بالإعْدادِ لقتال الأعداء ونُصرة الدين فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]. إن أعداء الإسلام يحاولون بشتى الطرق أن

ينسخوا مفهوم الجهاد والقتال عند المسلمين، لكي يَعْجَزُوا عن المقاومة. وتسهل غلبتُهم والسيطرةُ عليهم. فيتّهمونهم بالإرهاب من أجل ذلك، وقد انخدع كثير من المسلمين بهذه الخدعة، ويحاولون أن ينفوا عن أنفسهم هٰذه التهمة فتركوا الجهاد وجروا خلف السلام، ووقعوا في الفخ الذي نصبه عدوّهم.

إنَّ اللَّهَ تعالى لم يأمر بتَرْكِ العَمَلِ بحجَّةِ الانقطاع الكامِل لِعِبادَة اللَّهِ؛ لأنَّ سَعْيَ الإنسان نَوْعٌ من الجهادِ في سبيل الله، ولهٰذا قرن بينهما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمّل: 20]. وروى البخاريُّ في صحيحه عن رسولِ الله ﷺ: «**ما أكلَ أحَدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكُلَ مِن عَمَلِ يَدِه، وإنّ نبيَّ اللَّهِ داودَ كان يأكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ**» ومن المعلوم أنه كان نبيًّا ملكاً.

إنّ التواكلَ والقُعُودَ عن السَّعْيِ خُلُقٌ يأباهُ اللَّهُ للمسلمين؛ لأنه يتعارَضُ مع قواعِدِ الإسلام العامَّة في معنى العِبادَةِ، ويؤدِّي إلى تأخّر المسلمين عن مكان الصدارة بين الأمم في العالم؛ لأن الله يُريدُ لأمة الإسلام أن تكونَ قويّةً مَرْمُوقَةً، عزيزةَ الجانب، ممتازةً في تقديرها لحقيقتها وتقويمها لنفسها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

وليس ذلك فحسب، بل أوجب على المسلمين أن يكون الرُوَّاد في قيادة البشرية ودعوتها إلى الإيمان الصحيح بالله والعبودية له، والتخلّق بالأخلاق الكريمة، وحين يُقَصِّر المسلمون في دورهم في ريادة الأمم، وحملِ دينِ اللَّه، فإن نتيجة تقصيرهم تعود عليهم بالخسارة، والفشل الذريع، والتأخر، ويأتي اللَّهُ بقوم غيرَهم يحملون دينه ويؤمنون به وينصرونه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: 38].

17 ـــ الحَفيظُ

معناه

أنه حافظ الكون عن الخلل والاضطراب، ويكون ذلك بأمرين: (الأول): إدامَةُ وجود الموجودات، وبقائها بإيجاده وإبقائه، فالموجودات إنما وُجِدَت

بإيجاده وبَقِيتَ بإمداده. (الثاني): صيانة المتعاديات والمضادّات بعضها عن بعض. وهو مأخوذ من الحفظ. وهو صَوْنُ الشيء مِن الزوالِ والاختلال. فاللَّهُ جَلَّ وعلا هو الحافِظُ للموجودات، والصائنُ لها من الزوالِ والاختلال في نظامِها وتركيبها مُدَّة بقائها، بَحَسَبِ مشيئته. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 21]. ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الرقيب المُطَّلِع، الذي يُحْصِي أعمالَ عباده.

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً.

الملائكة تحفظ الإنسان بأمر الله

قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حَرَسٌ بالليل وحَرَسٌ بالنهار، يحفظونه من السوء والحوادث، وعن ابن عباس: المعقبات: ملائكة يحفظون الإنسان من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدرُ اللَّهُ خَلّوا عنه.

آية الكرسي لحفظ الإنسان

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255]. أي: لا يُثْقِلُهُ حِفْظُ السمٰواتِ والأرضِ ومَن فيهما ومَن بينهما، بل ذلك سَهْلٌ عليه يَسِيرٌ لديه، وهو القائِمُ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ، الرَّقيبُ على جميع الأشياء، فلا يَعْزُبُ عنه شيءٌ، ولا يغيبُ عنه شيءٌ، والأشياءُ كلُّها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلةٌ بالنِسْبَةِ إليه، محتاجةٌ فقيرةٌ، وهو الغَنِيُّ الحميدُ، الفَعَّالُ لما يريد، الذي لا يُسْأَلُ عمَّا يَفعَلُ وهم يُسألون، وهو القاهرُ لكلِّ شيءٍ، الحَسِيبُ على كل شَيءٍ، الرَّقيبُ العَليُّ العظيمُ، لا إلٰهَ غيرُهُ، ولا ربَّ سِوَاهُ.

وتسمّى هٰذه الآية: بآية الكُرسِيّ ـ لذكر الكرسي فيها في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ ولها شأن عظيم، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب

الله، أخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده إلى الصحابيّ الجليل أُبَيّ بن كعب ﷺ أن النبي ﷺ سأله: «**أيُّ آيةٍ في كتاب اللَّهِ أعظم؟**» قال: اللَّهُ ورسولُه أعلم، فردّدها مِراراً ثم قال: آيةُ الكُرسِيّ، قال: «**لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المُنذِرِ**».

وأخرج البخاري في مواضع مِن صحيحه عن أبي هريرة قال: وكَّلَنِي رسولُ الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان: فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلتُ: لأرفَعَنّكَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، قال: دَعْنِي فإني مُحْتَاجٌ، وعليَّ عِيَالٌ، ولي حاجة شديدة، قال: فخلَّيْتُ عنه، فأصبحتُ، فقالَ النبيّ ﷺ: «**يا أبا هريرة: ما فعل أَسِيرُكَ البارِحَةَ؟**» قال: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ شكا حاجَةً شديدة وعيالاً فرحمته وخلَّيتُ سبيله، قال: «**أما إنّه قد كذبك وسيعود**»، فعَرفتُ أنه سيعودُ لقولِ رسول اللَّهِ ﷺ أنه سيعود، فرصدته، فجاء، ففعل ذلك ثلاث مرات، فقال في الثالثة: دَعْني أعلّمكَ كلِماتٍ ينفعكَ اللَّهُ بها: قلتُ: وما هي؟ قال: إذا أَوَيْتَ إلى فراشِكَ فاقرأ آيةَ الكرسي ﴿اللَّهُ لا إله إلّا هُو الحيُّ القَيُّومُ﴾ حتى تختمَ الآيَة، فإنكَ لن يزالَ عليكَ مِنَ اللَّه حافِظٌ ولا يقرَبَك شيطانٌ حتى تُصبِحَ، فخلَّيتُ سَبيلَهُ، فأصبحتُ فقال لي رسولُ اللَّهِ ﷺ «**ما فعلَ أسيرُك البارحةَ؟**» قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ زعَمَ أنَّهُ يُعَلّمُنِي كلماتٍ ينفعني اللَّه بها، فخلَّيْتُ سَبيلَهُ، قال: «**وما هي؟**» قال: قال لي: إذا أَوَيْتَ إلى فراشِكَ فاقرأ آيةَ الكرسي من أوّلها حتى تختم الآية ﴿اللَّهُ لا إله إلا هُو الحيُّ القيّومُ﴾ وقال لي: لن يزال عليكَ من اللَّهِ حافِظٌ ولا يقربَك شيطانٌ حتى تُصْبِحَ، فقال النبي ﷺ: «**أما إنه صدقكَ وهو كذوبٌ، تعْلمُ مَن تخاطِبُ من ثلاثَ ليالٍ يا أبا هريرة؟**» قلتُ لا: قال: «**ذاك شيطانٌ**».

وأخرج الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وقال حسن صحيح: عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ في هاتين الآيتين: «**﴿اللَّهُ لا إلٰهَ إلّا هو الحيُّ القيّوم﴾ و﴿الم * اللَّهُ لا إله إلّا هو الحيُّ القيوم﴾**: «**إنّ فيهما الاسمَ الأعظم**».

وأخرج الترمذي، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾** [الآيات 1، 2، 3 من سورة غافر]، **وآيةَ الكرسي حين يُصبح، حُفِظَ بهما حتى يُمسِي، ومَن قَرأهما حين يُمسِي حُفِظَ بهما حتى يُصْبِحَ**».

آثار الحفظ تدلّ على الحفيظ

مقاومة الطفل ومناعته ضِدّ الأمراض

يولد الطفل بمناعة قويّة ترجع إلى ما اختزنه مِن أمِّه من مضادات للأمراض، وهو في هٰذه المناعة أقوى من أُمِّه في مُقاوَمَة الجراثيم الغازِيَة الفتّاكة، فالأمُّ أشَدُّ تعرّضاً للأمراض، ومن ذلك حُمَّى النفاس، أو الحمَّى الثانوية والالتهابات، وفقر الدم.

يفرز الثديان ابتداءً من الشهر الثالث من الحمل، وفي الأيام القليلة التي تعقِبُ الوِلادَة سائلاً قلويّاً يميل إلى الصُفرَةِ، وهو: اللَبَأُ أو الرسُوبُ أو (الكلوسترم)، ويختلف في تركيبه عن اللبن الحقيقي، إذ يحتوي على نسبةٍ أكبر من المواد الزلالية، أكثرها من (الجلوبيولين) ونسبةٍ أدنى من المواد السكّريّة والدُهنيّة، ويشتمل على كل الفيتامينات تقريباً، لا سيّما فيتامين (أ) الذي ثبت وجودُه بنسبة أعلى منها في اللبن الحقيقي، واللبأ علاوةً على قيمته الغذائية مُلَيِّن مسهّل لطيف، لكنه لا بُدّ منه ليتخلص الطفلُ من العقي الذي يملأ مصارينه وأمعاءه الدقيقة والغليظة على حدٍّ سواء، وهٰذا العقيُ مادّة سوداء تراكمت وتجمّعت وتكدّست منذ الشهر الخامس للحمل. ولا بُدّ من التخلّص منها حتى تبدأ أمعاء الطفل الصغير عملية الهضم، وقد يؤدي فشل الوليد في طردها إلى انْسِدادٍ مَعَوِيّ حادٍّ قاتِل وخطير النتائج، أهم مخاطره: الانفجار المعَوي، وانفجار الغشاء البريتوني.

ومادة اللبأ تنبه انقباضات الأمعاء مما يساعدها على التخلص من محتوياتها، وهو لا يحتوي على أجسام مضادة للجراثيم، إنما يقوي الدفاعات المناعية للجسم ضدّ هذه الجراثيم.

أما اللبن الحقيقي فيبدأ إفرازه بسخاء وغزارة وانسجام اعتباراً من اليوم الثالث أو الرابع للولادة، وممّا يحفّز ويسرّع بانسجامه هو عملية الإرضاع نفسها من الطفل الوليد ذاته. فمن الذي حفظ الطفل الرضيع بهٰذه المادة؟ إنه اللّهُ الحفيظ.

حفظ الله للقرآن

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9].

شُبْهَة تحريف القرآن

عَقِبَ الحروب الصليبية، اندحرت جيوش الصليبيين تجرّ أذيال الخيبة والفشل والهزيمة النكراء التي مُنُوا بها على أيدي جيوش المسلمين بقيادة البطلِ المسلم صلاح الدين الأيوبي، فعادوا إلى أوروبا وعكفوا على دراسة أحوال الشرق وديانته، وأسباب هزيمتهم وقوّة المسلمين لإعادة الكرة عليهم، وتخصص قومٌ منهم بدراسة أحوال الشرق، سُمُّوا: بالمستشرقين، ومعظمهم من رهبان الكنائس والأديرة، وتوصَّلُوا ألى أن حرب السيف لم تُجْدِ معهم نفعاً في غزو العالم الإسلامي. فلجأوا لشكل جديد من أشكال الحرب وهو ما يُسَمَّى: بالغزو الثقافي، وعكفوا على وضع المخططات والدراسات وتشكيل الجمعيات و لمؤسسات، وعقد الندوات وآلاف المؤتمرات، ووضع الكتب وإرسال جيوش المُبَشّرين للعالم الإسلامي بهدف تنصير المسلمين وإخراجهم من دينهم.

ولكنهم فشلوا بعد جهود متواصلة في تنصير المسلمين، فغيّروا خطتهم، وخاصّة بعدما صار المُبَشِّرون الذين أرسلوهم للشرق يدخلون في الإسلام! وعلموا أنهم لن ينجحوا في هٰذا الهدف، فقرّروا الانتقال إلى تشكيك المسلمين بدينهم، والعمل على إخراجهم منه، لجعلهم أناس لا دينيّين، عَلْمانيين، لا يؤمنون بربّ، ولا نبيّ، ولا دين، ووقف رئيس وزراء بريطانيا السِير (غلادستون) أمام حكومته وقال مقولته الشهيرة: (لن نستطيع السيطرة على بلاد المسلمين ما دام القرآن بأيديهم، يجب علينا أن ننتزعه منهم)، فاقترح أحد الوزراء إجراء حملة تفتيش واسعة لمصادرة المصاحف من بلاد المسلمين، فأجابه: (إذا نزعناه من أيديهم فإنه في قلوبهم، الحلّ الصحيح هو بإبعادهم عنه وجعلهم يهجرونه ويتركون العمل به).

هكذا خطّط أعداء المسلمين لإبعاد المسلمين عن دينهم وكتابهم الأول القرآن الكريم، وهو دستورهم والمصدر الأول لدينهم، وقد شَنُّوا حملة تشكيك

واسعة النطاق حول صدق نبوّة محمد، وصحّة نصوص القرآن وأصله، وأنه من تأليف محمد ﷺ، وكيفية جمعه وكتابته، وتاريخ وصوله إلينا.

ومِن أخطر مَن حاول الطعن في القرآن الكريم المستشرق اليهودي: (جولد تسيهر) وذلك في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» وقد انتشر كتابه وكتابات أضرابه في العالم انتشاراً واسعاً، وقُرّرت آراؤهم للتدريس في المناهج التعليمية في المدارس والجامعات العالمية، على أنها مُسَلَّمات!! وسَرَت هذه الشكوك إلى مصادر الدراسات التاريخية ودوائر المعارف، وأخذت طريقها إلى الشرق الإسلامي، عن طريق أبنائه الذين تتلمذوا على أيدي أساتذتهم المستشرقين فحملوا أفكارهم الهدّامة إلى أبناء جنسهم، وانتشرت هٰذه الحرب على أيديهم واستعرت، حتى نشأ جيلٌ عَلْمَانِيٌّ في بلاد المسلمين مُتَغَرّبٌ، لا يعرف شيئاً عن أمور دينه، مشكّك به، مُعْجَبٌ بالغرب، يأنَف من إسلامه ودينه، ويقلّد الغرب في تفكيره وكل مظاهر حياته، مما استَوْجَب إعادته إلى دينه وهويّته الإسلامية، وذلك بالردِّ العلميِّ المُقْنِعِ المُدَلَّلِ بالأدلَّةَ والبراهين، على أعداء الإسلام، لجلاء شُبَههم، وتفنيدها، وتوضيح الحق لأبناء المسلمين حول صِحَّةِ القرآن، وسلامةِ نصوصه، وحفظِ الله له.

القرآن كتابُ الله

القرآن الكريم هو كتابُ الله المُعجز المتضمن كلامه المُنْزَلُ من عند الله، من اللوح المحفوظ على خاتم أنبيائه محمّد ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وقد نَسَخَ اللَّهُ به جميع كتبه السابقة من صحفٍ وزبور وتوراة وإنجيل، وأَحْكَمَ آياته فلا ينسخها شيء، فحوّل الله به الحياة البشرية من شقاء لسعادة، ومن ذلّة لسيادة، وأبدلهم بجهلهم علماً، وبِهَمَجِيَّتِهم ثقافة وحضارة، فملأ الأرضَ عدلاً، ورحمة، وحقّاً، وهدًى، وعِلماً، وصار دستور المسلمين.

وقد أُنْزل في اليوم السابع عشر من رمضان في السنة الحادية والأربعين من مولده ﷺ الموافق لسنة 621م، حين أوحي إليه في غار حراء، وأول ما نزل منه قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 1 ـ 5]. وآخِرُ ما نزل منه ﴿ٱلْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. وقد نزل مُفَرَّقاً خلال اثنتين وعشرين سنةً وشهرين واثنين وعشرين يوماً. ومنه ما نزل بمكة ويُقال له: المكّي خلال إقامته ﷺ فيها وهي: اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً على التحقيق، ومنه ما نزل بالمدينة المنورة ويقال له: المدني، خلال إقامته ﷺ بالمدينة وهي: تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام، وعَدَدُ سُوَر القرآن: (114) سورة منها: ثلاث وعشرون مدنية، والباقي: مكي. ولكل سورة اسم خاصٌ بها.

كيفية تدوين القرآن ووصوله الينا

كانت الآيات والسور تنزل على رسول الله ﷺ، فيبلّغها لأصحابه ويأمرهم بكتابتها ويحفظها في بيته، وينسخ الصحابة لأنفسهم منها ويحفظونها في صدورهم حتى كثر فيهم الحفظة، ويقرؤونها في صلاتهم ويتعبّدون بتلاوتها في سائر أوقاتهم حتى استتمَّ نزول القرآن كاملاً، وكان جبريل يعرضه على الرسول ﷺ في كل سنة مرة، وقد عرضه عليه مرّتين سنة وفاته. وتوفي الرسول ﷺ والصحف مجموعةٌ في بيوت أزواجه، ومحفوظة في صدور كثير من المسلمين.

جمع القرآن على عهد أبي بكر

في عهد الخليفة الراشد أبي بكر توفي من حَفَظَةِ القرآن نحوُ سبعين في معركة اليمامة، فأشار عمرُ على أبي بكر أن يجمع القرآن بين دفّتَي مصحف واحد، بعد أن كان صحفاً متفرقة على الرفوف في بيوت أزواجه ﷺ، فأمر أبو بكر زيدَ بن ثابت ومعه جَمْعٌ من الصحابة المعروفين بالحفظ والكتابة بجمع الصحف بين دفّتَي مصحف واحد على الترتيب الذي كان الرسول يتلوها بها. ويُضاف إليه حفظ الحفّاظ في صدورهم، وصار هٰذا المصحف مرجعَ المسلمين، فحفظه أبو بكر في حياته، وخلفه عليه عمر ثم تركه عمر عند ابنته حفصة أم المؤمنين.

الخليفة عثمان يجمع الناس على مصحف واحد

ولما كانت خلافة عثمان اختلف الناسُ في قراءة القرآن تبعاً لاختلاف

لغاتهم، فأشار عليه حذيفة بن اليمان أن يجمعَ الناسَ على مصحفٍ واحد، فأمرهم عثمان بحرق جميع ما لديهم من الصحف، وأمر زيد بن ثابت أن ينتسخ من المصحف المحفوظ عند حفصة سبعة مصاحف وزّعها في الأمصار وأمر الناسَ بنسخ مصاحفهم منها.

فأبو بكر جمع كل ما دُوِّنت فيه آية أو آيات من القرآن حتى لا يضيع منه شيء، وعثمان جمع المسلمين على هٰذا النص الواحد، وأمر بحرق ما سواه حتى لا يختلفوا في لفظ واحد منه، وأبقى لنفسه مصحفاً عُرِفَ بالمصحف الإمام، وأمر بنشر النسخ السبع في الأمصار ليقرأ منها القرّاء ويرجع إليها الحفاظ.

وبِعَمَلِ عثمان تمّ الأمنُ على كتاب الله عز وجل، وتناقلته الأجيال عبر العصور، وما اختلف المكتوب منه والمحفوظ، ولا اختلف في لفظه اثنان، وهٰذه ملايين المسلمين في أرجاء الأرض منذ أربعة عشر قرناً من الزمن يقرؤونه، ولا يختلف فيه اثنان بزيادة أو نقصان، أو تغيير، أو تبديل، أو ترتيب، تحقيقاً لوعد الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9].

18 ــ المؤمن

معناه

مأخوذ من الأمن، ومعناه: أن الله سبحانه هو الذي يؤمِّن عباده من المَخاوِف، فيدفع عنهم كلَّ ما هو خطرٌ عليهم، ويُلْقِي في قُلوبهم الطمأنينة والسكينة، ويدفع عنهم الخوف. وهٰذا التأمين يكون في الدنيا والآخرة، فيعود على هٰذا إلى ما يقرب من معنى الحفظ والصيانة، بزيادة معنى إلقاء الطمأنينة في قلب مَن يرعاه بِحِفْظه، ويكون بذلك اسماً من أسماء الأفعال. وهٰذا أحد معاني هٰذا الاسم، ويعود أيضاً إلى صفة العلم.

وقد ورد هٰذا الاسم في موضع واحد من القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾ [الحشر: 23].

أقوال العلماء في تفسيره

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذا الاسم: (المُؤْمِنُ: هو الذي يَصْدُقُ عبادَه وعْدَهُ، فهو من الإيمان بمعنى التصديق، أو يؤمِّنُهم في القيامة من عذابه فهو من الأمان، والأَمْنُ ضِدُّ الخوف).

وقال الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الشافعي في كتابه «المَقْصِدِ الأَسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى» في معنى هٰذا الاسم: (المؤمن: هو الذي يُعْزَى إليه الأَمْنُ والأمانُ بإفادته أسبابه، وسَدِّهِ طُرُقَ المخاوِفِ. ولا يُتَصَوَّرُ أَمْنٌ إلّا في مَحَلِّ الخَوْفِ، ولا خَوْفَ إلّا عند إمكان العدم والنَّقْص والهَلاك.

والمؤمِنُ المُطْلَقُ هو الذي لا يُتَصَوَّرُ أمنٌ وأمانٌ إلّا ويكون مستفاداً مِن جهته، وهو الله تعالى.

وليس يخفى أن الأعمى يخاف أن ينالَه هلاك من حيث لا يرى، فعينه البصرية تفيده أمناً منه، والأقطَعُ يخاف آفةً لا تندفع إلا باليد، فاليدُ السليمة أمانٌ منها. وهكذا جميع الأطراف والحواسّ. واللَّهُ خالِقُها ومصوِّرها ومُقَوِّيها، فهو المؤمن عبده.

ولو قدّرنا إنساناً وحده مطلوباً من جهة أعدائه، وهو مُلْقىً في مضيقة لا يتحرّك عليه أعضاؤه لضعفه، وإن تحرّكت فلا سلاح معه، فإن كان معه سلاحٌ لم يُقاوِم أعداءه وحده، وإن كانت له جُنود لم يأمَن أن تنكسِرَ جُنودُه، ولا يجد حِصْناً يأوي إليه. فجاء من عالج ضَعْفَهُ فَقَوَّاهُ، وأمدَّه بجنود وأسلحة، وبنى حوله حِصناً حصيناً، فقد أفاده أَمْناً وأماناً. فبالحَرِيِّ أن يُسَمَّى: مؤمناً في حقّه.

والعبدُ ضعيفٌ في أصل فطرته، وهو عُرْضةٌ للأمراضِ والجوع والعطش من باطنه، وعُرْضَةٌ للآفات المُحْرِقَةِ، والمُغْرِقَةِ، والجارِحَةِ، والكاسِرَة من ظاهره. ولم يُؤَمِّنْهُ مِن هٰذه المخاوِفِ إلّا الذي أَعدَّ الأدوية دافِعَةً لأمراضه، والأَطْعِمَةَ مُزِيلَةً لجوعه، والأشربةَ مُمِيطَةً لعطشه، والأعضاءَ دافعةً عن بَدَنِهِ، والحواسَّ جواسيسَ مُنْذِرَةً بما يقرِّبُ من مُهْلِكاتِهِ.

ثم خَوْفُه الأعظمُ مِن هلاكِ الآخِرةِ، ولا يحصّنه عنه إلّا كلمةُ التوحيد، واللَّهُ تعالى هاديه إليها، ومُرَغِّبُهُ فيها حيث قال تعالى في الحديث القدسي: «**لا إله إلا اللَّهُ حِصْنِي، فمن دَخَلَ حِصْنِي فقد أَمِنَ عَذَابِي**» (أخرجه ابن النجار وابن عساكر عن أنس).

فلا أمن في العالَم إلّا هو مستفادٌ بأسبابٍ هو مُنْفَرِدٌ بخلقها، والهدايةِ إلى استعمالها، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50]، فهو المؤمنُ المطلَقُ حَقّاً.

حَظُّ العَبْدِ من هٰذا الوصف أن يأمَنَ الخَلْقُ كلُّهم جانِبَه، بل يرجو كلُّ خائِفٍ الاعتضادَ به في دفع الهلاكِ عن نفسه في دينه ودُنْياه، كما قال رسولُ الله ﷺ: «**واللَّهِ لا يُؤمِن، واللَّهِ لا يؤمِن، واللَّهِ لا يؤمن**»، قيل: ومَن يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: «**الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ**» (أخرجه البخاري عن أبي شرَيح).

وأَحَقُّ العِبادِ باسم المؤمن مَن كان سَبباً لأَمْنِ الخَلْقِ من عذابِ اللَّهِ بالهداية إلى طريق اللَّهِ والإرشادِ إلى سبيل النجاة. وهٰذه حِرْفَة الأنبياء والعُلماء، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**إنكم تتهافتون في النارِ تَهافُتَ الفراش وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ**» (أخرجه أحمد في المسند).

ولعلَّكَ تَقُولُ: الخوفُ على الحَقِيقةِ مِنَ اللَّهِ، فلا مُخَوِّفَ إلّا إيّاهُ، فهو الذي خَوَّفَ عبادَه، وهو الذي خَلَقَ أَسْبَابَ الخوفِ، فكيفَ يُنْسَبُ إليه الأَمْنُ؟ فجوابك أن الخوفَ منه، والأَمْنَ منه، وهو خالِقُ سبب الخوفِ والأمن جميعاً، وكونه مَخُوفاً لا يَمْنَعُ كونَه مُؤمِناً، كما أَنَّ كَوْنَهُ مُذِلّاً لا يَمْنَعُ كَوْنَهُ مُعِزّاً، بل هو المُعِزُّ والمُذِلُّ. وكونُه خافِضاً لا يَمْنَعُ كونَه رافعاً، بل هو الخافِضُ الرافع، فكذلك هو المؤمِن المَخُوفُ، ولكنّ المؤمِنَ وَرَدَ التوقِيفُ به خاصَّةً دون المَخوف). انتهى كلام الغزالي.

أثر هٰذا الاسم على الإنسان

إن الإيمان باللَّهِ يُورِثُ النفسَ الإنسانيةَ سَكِينةً، هي: الينبوع الأول للسعادة، ولٰكن كيف السبيلُ إليها إذا كانت شيئاً لا يُثْمِرُهُ الذكاءُ ولا العلمُ، ولا

الصحةُ ولا القُوَّةُ، ولا المالُ والغِنَى، ولا الشُّهْرَةُ والجاهُ، ولا غيرُ ذلك مِن نِعَمِ الحياة المادّيّة؟

إن للسكينة مصدراً واحداً، هو الإيمانُ باللَّهِ واليوم الآخِر، الإيمانُ الصادِقُ العميقُ، الذي لا يكدّره شَكٌّ، ولا يُفْسِدُهُ نِفاقٌ. هٰذا ما يشهد به الواقع الماثِلُ، وما أَيَّدَهُ التاريخُ الحافِلُ، وما يَلْمَسُهُ كلُّ إنسانٍ بَصيرٍ مُنْصِفٍ، في نفسه وفيمن حولَه.

إنّ أكثر الناسِ قَلَقاً وضيقاً واضطراباً، وشعوراً بالتفاهَةِ والضَياع هُمُ المَحْرُومُون مِن نعمة الإيمان، وبَرْدِ اليقين. إنّ حياتهم لا طَعْمَ لها ولا مَذَاق، وإنْ حفلتْ باللذائذ والمُرَفِّهات؛ لأنهم لا يُدركون لها معنًى، ولا يَعْرِفُون لها هَدَفاً، ولا يَفْقَهُونَ لها سِرّاً، فكيف يَظْفَرون مع هٰذا بسكينة نفسٍ، أو انشراح صَدْرٍ؟ إن هذه السكينة ثمرةٌ مِن ثمارِ دَوْحَةِ الإيمان، وشجرة التوحيد الطيِّبَة التي تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِين بإذنِ ربّها. فهي نَفحَةٌ ربّانيَّةٌ يُنْزِلُها اللَّهُ على قُلوبِ المُؤمنينَ مِن أَهلَ الأرض ليُثَبِّتُوا إذا اضطربَ الناسُ، ويَرْضُوا إذا سَخِطَ الناسُ، ويُوقِنُوا إذا شَكَّ الناسُ، ويَصْبِرُوا إذا جَزِعَ الناسُ، ويَحْلَموا إذا طاشَ الناسُ. هٰذه السكينةُ يُنْزِلُها الله على المؤمنين ليسكنَ الخائفُ، ويَطمئنَّ القَلقُ، ويتسلّى الحزينُ، ويَسْتَرِوحَ المتْعَبُ، ويقوَى الضعيفُ ويَهتَدِي الحيرانُ.

الإنسان بين القلق النفسي والإيمان

يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه المُبين: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: 124 ـ 127].

إن أشَدَّ الأمراضِ انتِشاراً في العالم في هٰذه الآونة هو مرضُ اضْطِرابِ الأعصاب والقلقِ النفسيِّ، وضغطِ الدم والشرايين، وذلك ناشىءٌ عن بُعْدِ الناسِ عن ربّهم، وإعراضهم عن الإيمان به وطاعته، واتّباع شرعه.

لقد مالت أوروبا منذ القرن الخامس عشر للمادِّيَّة المُفْرِطَة، وتبعها العالمُ

الإسلامي في القرن العشرين. فأعلنا إبعاد الدين وأهله عن المجتمع، بل ثارت عليهما ثورة عنيفة قضت على جميع مظاهر الإيمان وحاجات الروح الإنسانية، ومال الإنسانُ إلى تأليه نفسه، والسعي وراء حاجاته الجسدية وشهواته، وكفر بكلّ القيم، والمبادىء، والأخلاق، والدين، وظهر الإلحاد، والشيوعية، والعلمانية، والوجودية، فماذا كانت النتيجة؟

لقد تقدَّمَ الإنسانُ الغربيُّ في مجال الاكتشافات والاختراعات والتكنولوجيا تَطوُّراً هائلاً، فشق الطرق، وبَنَى الجسُور، ورفع المباني، وشاد القصور، وتوصل إلى الأسلحة المدمّرة الفتّاكة، وهٰذا كلُّه جانبٌ لا يُنكر، ولكنه يدور في فلك المادة، فأين هو الإنسانُ الغربي وسط هٰذه الحضارة المادّيَّة، وهل حقَّقت له السعادةَ والطمأنينة والحياة الهنيئة أم ماذا؟

إنّ الغربَ المادّيّ أخطأ الطريق، وضل عن السبيل الصحيح، بتأليه الإنسان، وإطلاق العنان لغرائزه وحاجاته وشهواته، وهٰذا فتحَ المجالَ أمام حِفْنَةٍ قليلة من اليهود شُذّاذ الآفاق، وقَتَلَةِ الأنبياء، أن يحقّقُوا مطامعهم في السيطرة على العالم، واستبعادِ شعوب الأرض، وجَعْلِها شعوباً حيوانية لا همَّ لها إلا شهواتها وتحقيق رغباتها، فتسهل بذلك السيطرة عليهم.

لذلك فهم الذين يروّجون للإلحاد والكفر بجميع صوره، ويفلسفونه، ويصوغونه بأسماء برّاقة كالتقدّم، والرقيُّ والحداثة، والعلمانية، والديموقراطية، وقد أسَّسُوا الجمعيات والمحافل السرّية والعلنية لنشر أفكارهم وتضليل شعوب الأرض، وهم بذلك يحقّقون تعاليم دينهم الذي حرَّفوه وبدّلوه، فقد جاء في كتابهم التلمود ما نصّه: (أنتم شعب الله المختار، وقد جعلتُ لكم سائر شعوب الأرض حميراً لتركبوها ولتبلغوا بها أهدافكم)!! فهم عنصريون يعتبرون أنفسهم شعباً ممتازاً، وينظرون لسائر البشر على أنهم حمير، يستغلّونهم لأغراضهم وقد خطّطوا للسيطرة على العالم وحُكمِه من مملكة إسرائيل الكبرى.

وقد تحقّق لهم ما أرادوا في أرجاء الأرض وها هم يقيمون دولتهم ويسيطرون على العالم وحكوماته وشعوبه، ويشعلون الحروب الفتاكة المُدمِّرة في أرجاء الأرض، للقضاء على من يعارضهم، ويُحدثون الأزمات السياسية

والاقتصادية والاجتماعية، ويسعون في الأرض فساداً، هٰذه هي نتيجة ابتعاد أوروبا والغرب عن الدين، فَمَنْ لِهٰؤلاء اليهود شُذّاذ الآفاق؟ مَن يتصدّى لمخططاتهم الإجرامية بحق شعوب الأرض؟ مَن يأخذ على أيديهم ويمنعهم من تحقيق مآربهم الخسيسة الدنيئة الحقيرة في استعباد شعوب الأرض والعلوّ عليهم استكباراً في الأرض؟

لقد وقع الناسُ في جميع بلاد العالم ـ وخاصة المسلمون ـ فريسَةً بيد هؤلاء المجرمين، وتحقّقت فيهم مخططاتهم الشيطانية، فعمّ الفقرُ والجَهْلُ والأمراضُ، وتفككت المجتمعات، وانحلّت الأسر، وتدهورت القيم والأخلاق، وانتشرت الرذيلة والانحلال، وتحول الناسُ إلى بهائم لا همَّ لها إلّا إشباع غرائزها وشهواتها، فانتشرت الأمراض الفتاكة كالإيدز، والسرطان، وأمراض الأعصاب، والقلق النفسي، والاضطرابات، والضغط، والشرايين، وبات الناسُ قلقين على مستقبلهم ومصيرهم، عاجزين لا يقدرون على شيء.

إن الإيمانَ باللَّهِ هو الحلُّ الوحيدُ للبشريَّة المُعَذَّبَةِ في الأرض، ولا دواء لها سِواه مهما حاولت، وها هي قد جرّبَت كلَّ شيء، كلَّ المبادىء والأفكار والأنظمة من شيوعية، ودكتاتورية، وديمقراطية، واشتراكية، لكنها لم تفلح في إنقاذ شعوبها فَلْتُجَرّبِ الإيمانَ، ولو لفترة، فإنه البَلْسَمُ الشافي: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. ولقد جَرَّبَت الإنسانية هٰذه التجربَة سابقاً على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، وعهود الإسلام المشرقة الوضّاءَة، فسَعِدَت، وعَزَّت بعد ذل، وصار المسلمون أسياد العالم ونشَروا دين اللَّهِ وهَدْيَه في الآفاق، فكانوا بحق ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

إن الإيمان بالله يكسب النفس الإنسانية سعادةً وطمأنينة لا يمكن أن تحصل لها إلا بالإيمان، فلا المال، ولا المناصب والجاه، ولا الأولاد، ولا الأملاك، ولا الحضارة المادية هي التي تحقق سعادةِ الإنسان، بل إيمانه بربّه وخالقه، حينما يشعر أنه يؤدي دوره الذي خُلِقَ من أَجْلِهِ، وهو عبادَةُ الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]، حينما يخضع لجبّار السمٰوات والأرض

وينفذ أوامره، ويطيعه ويلوذ بجنابه، ويشعر أن له ربّاً يحميه ويصونه ويقوّيه، ويعينه على نوائب الدهر، فيستمد منه العون والمدد والقوة، فيرتاح بقربه، ويأنس بذكره، وتتنزّل عليه السكينةُ حينما يقف في الصلاة يناجيه ويُعلن له خضوعه وطاعته وامتثاله لأمره.

الأَمْنُ النَفْسِيّ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: 82]، أي: إن الذين آمنوا بالله وأخلصوا العبادة له وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمِنُون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه بسنده إلى عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لمّا نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابُه: وأَيُّنا لا يَظْلِمُ نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى جرير بن عبد الله ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلمّا بَرَزْنا مِنَ المدينة إذا راكِبٌ يوضَعُ نَحْوَنا، فقال رسولُ الله ﷺ كأنَّ هٰذا الراكبَ إيّاكم يُريد، فانتهى الرجلُ إلينا فَسَلَّم، فرددنا عليه، فقالَ له النبي ﷺ: «**من أين أقبلتَ؟**» قال: مِن أهلي وولدي وعشيرتي، قال: «**فأين تريد؟**» قال: أريدُ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**فقد أَصَبْتَه**»، قال: يا رسولَ اللهِ! عَلِّمْنِي ما الإيمان؟ قال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت**»، قال: قد أقررتُ. قال: ثم إنّ بعيره دخلت يَدُهُ في حُجْرِ جُرْذَان فهوى بعيرُه، وهَوَى الرجلُ فَوَقَعَ على هامَتِهِ فماتَ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَلَيَّ بالرَّجُل**»، فَوَثَبَ عمّارُ بن ياسِر، وحُذَيْفَةُ بنُ اليمان، فأقعداه، فقالا: يا رسولَ اللَّهِ! قُبِضَ الرجلُ، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ «**فإنّي رأيتُ مَلَكَيْن يَدُسَّانِ في فمه من ثمار الجنة فَعَلِمْتُ أنه مات جائعاً**». ثم قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**هٰذا مِنَ الذين قال اللَّهُ عزّ وجلّ فيهم**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾» الآية.

وأخرج الشافعي بسنده إلى ابن مسعود قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**قيل لي: أنتَ منهم**».

أثر الإيمان على النفس

الإيمان هو مصدر الأَمْن، والأَمنُ ثَمَرةُ الإيمان، وهو الطمأنينة والسكينة اللتان يضفيهما الإيمان على النفس الإنسانية، طمأنينة تتعلق بالمستقبل بكُلّ ما يتوقّعه الإنسانُ ويخاف منه، أو يخافُ عليه، ولا سعادة بدون هٰذا الأَمنِ النفسي. قيل لحكيم: ما السرورِ؟ قال: الأمنُ، فإني وَجَدْتُ الخائفَ لا عَيْشَ له.

ولا عَجَبَ أن جَعَلَ اللَّهُ الجنَّةَ دارَ أَمْنٍ وسَلامٍ كامِلَيْن، فأَهْلُهَا في الغُرُفَاتِ آمِنُونَ، لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون، وتتلقّاهُمُ الملائكةُ منذُ اللحظةِ الأولى ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر: 46].

إن الإنسان يخاف من أشياء كثيرة، وأمورٍ شتّى، ولكن المؤمنَ سَدَّ أبواب الخوف كلَّها، فلم يَعُدْ يخافُ إلّا اللَّهَ تعالى وَحْدَهُ، يخاف أن يكونَ فَرَّط في حَقّه أو عتدى على خَلْقِهِ، أما الناسُ فلا يخافهم؛ لأنهم لا يملكون له ضَرّاً ولا نفعاً، ولا مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً.

دعا أبو الأنبياء إبراهيمُ عليه السلام إلى توحيد الله، وتحطيم الأصنام، فَخَوَّفَهُ قومُه مِن آلهتهم التي دَعَا إلى نَبْذِها، فقالَ إبراهيمُ مُتَعَجِّباً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: 81]. وقد عَقَّبَ الله تعالى على ذلك حاكماً بين الفريقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، فبيّن لنا أن الإيمان والتوحيد هما من أعظم أسباب الأمن والطمأنينة، وأن الجُحُودَ باللَّهِ أو الشّكّ فيه، أو الشركَ به، أَعْظَمُ أسبابِ الخوفِ والاضطراب والرعب، وصَدَقَ اللَّهُ حين قال: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: 151].

مخاوف الكفّار والملحدين والشاكّين

الكفّارُ والملحدون الجاحدون هم أكثر الناسِ مخاوِف ـ وإن كتموها عن الناس ـ إنّهم يَخافون الزَمَنَ والمستقبل، والكوارِثَ، والفقرَ، والمَرَضَ، والناسَ، وأشدُّ ما يُخيفهم الموتُ، فهم ينظرون إليه نظرتهم إلى سَبُعٍ فاتِك، وعَدُوٍّ مُتَرَبِّصٍ، ونهايةٍ مجهولةٍ، ومَصير مُخَوِّف.

يقول الفيلسوف ابن مَسْكُوَيْه: «إن الخوف من الموت ليسَ يَعْرِضُ إلّا لمن لا يدري الموتَ على الحقيقة، ولا يعلم إلى أين تصيرُ نفسه؛ أو لأنه يظنُّ أن بَدَنَهُ إذا انْحَلَّ وبَطَلَ تَرْكِيبُه، فقد انْحَلَّتْ ذاتُه، وبَطَلَتْ نَفْسُه بُطلانَ عَدَمٍ ودُثورٍ، وأنّ العالَمَ سَيَبْقَى مَوْجُوداً، وليس هو بِمَوْجُودٍ فيه، كما يَظُنُّهُ من يَجْهَلُ بَقَاءَ النفسِ وكيفيَّة المعادِ؛ أو لأنّه يَظُن أن للموتِ ألماً عظيماً، غير أَلَم الأَمْرَاضِ التي رُبَّما تَقَدَّمَتْهُ وأدَّت إليه، وكانت سبب حُلُولِهِ؛ أو لأنه يعتقد أن عُقوبَةً سَتَحلُّ به بعد الموت؛ أو لأنه مُتَحَيِّرٌ لا يدري على أي شيء يَقْدُمُ بَعْد الموتِ؛ أو لأنه يأسَفُ على ما يُخلِّفُه من المال والمُقْتَنياتِ، وهٰذه كلُّها ظنُونٌ باطِلةٌ لا حقيقة لها».

ولكن الكفّار والمنكرين والشاكّينَ يعيشون هٰذه الظنون، ويموتون على هٰذه الأباطيل، وهم بين الموت والحياة في قلق وخوف واضطراب، على حين نَجِدُ المُؤْمِنَ أَقَلَّ الناسِ خوفاً وأشدَّهم أمناً؛ لأنه آمن أن له ربّاً يؤمِّنُه من الخوف في الدنيا، وعند الموت، وبعد الموت، فهو آمِنٌ على نفسه؛ لأنه اتَّقى ربه ولم يَعْصِه، وآمِنٌ على رزقه؛ لأنه يعلم أن الرزّاقَ هو اللّه، بهٰذه الضمانات يعيشُ المؤمنُ حياته آمناً مطمئناً، ولا يخاف المستقبل؛ لأن اللّهَ وَعَدَهُ جَنَّةً ونعيماً إذا هو آمن في الدنيا وأطاع.

19 ــ المُهَيْمِن

معنى هذا الاسم: المهيمن أي: المُسَيطرُ، القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقِهم وآجالهم، الحافظ لهم، فهو الشهيد الرقيب على عباده. وهو مأخوذ من قولهم: هَيْمَنَ الطائِرُ، إذا نَشَرَ جناحَيْه على فرخه صيانَة له، فمعنى المهيمن على

هٰذا: البالِغُ درجة النهاية في المراقبة والحفظ، وإلقاء الطمأنينة في قلب مَن يَرْعَاهُ ويحفظه. ويعود إلى صفة العلم إذا كان من الهيمنة بمعنى الرقابة والمشاهدة.

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في موضع واحد، وهو في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23].

أقوال العلماء في تفسيره

جاء في تهذيب اللغة للأزهري: قال ابن عباس: المهَيمنُ: المُؤْتَمَنُ. وقال الكِسَائيُّ المُهَيْمِنُ: الشهيد، وقال غيرُه: هو الرقيبُ، يُقالُ: هَيْمَنَ يُهَيْمِنُ هَيْمَنَةً: إذا كان رقيباً على الشيء. وقال الجوهريُّ في الصحاح: المُهَيْمِنُ: الشاهِدُ، وهو مَن آمَن غَيْرَهُ من الخَوْفِ، وأَصْلُهُ (أَأَمَنَ) فَهُو مُؤَأْمِنٌ ـ بهمزتين ـ قُلِبَت الهَمْزَةُ الثانيةُ ياءً كراهَةً لاجتماعهما، فصار: مُأَيْمِنٍ، ثم صُيِّرَت الأولى هاءً، كما قالوا هِيَّاكَ وإيَّاكَ، وهَرَقْتُ الماءَ، وأصلُه: أَرَقْتُ، وهذا على قياس العربيَّة صَحِيحٌ إن شاءَ اللَّهُ تعالى، مع ما جاء في التفسير أنه بمعنى الأمين، وقيل بمعنى مُؤْتَمَن. وقال ابن الأنباريّ: المُهَيْمِنُ: القائِم على خَلْقِهِ.

وقال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي (ت 505 هـ) في كتابه: «المَقْصِدِ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (المُهَيْمِنُ: معناهُ في حقّ اللَّهِ تعالى: أنه القائِم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالِهِم. وإنما قيامُه عليهم باطّلاعِهِ واستيلائه وحفظه. وكلُّ مُشْرِفٍ على كُنْهِ الأمْرِ مَسْؤولٌ عليه، حافظ له، فهو مهَيمنٌ عليه. والإشراف يَرْجِعُ إلى العلم، والاسْتِيلاء إلى كمال القُدْرَةِ، والحِفْظُ إلى العَقْل).

فالجامِعُ بَيْن هٰذه المعاني اسمُه: المُهَيْمِن. ولَن يجمع ذلك على الإطلاقِ والكمالِ إلّا اللَّهُ تعالى، ولذلك قيل: إنه من أسماءِ اللَّهِ تعالى في الكتب القديمة.

أثر هٰذه الأسماء على العبد:

بعد أن استعرضنا أسماء الله الحُسْنَى التي تدخل في باب الخلق والتكوين

العام، نلاحظ ما تدلّ عليه هذه الأسماء الجليلة من معان، وهذه الأسماء هي: (الحكيم، الرشيد، الخالق، البارىء، البديع، المُصَوِّر، الهادي، المُبْدِىء، المعيد، الباعث، المحيي، المِمِيْت، الجبّار، القهّار، القيّومُ، الحفيظ، المؤمِنُ، المُهَيْمِن)، لا بُدّ أن تدفعه باستمرار إلى التبَصُّر والإمعان في جميع المخلوقات، صغيرها وكبيرها، باحثاً عن أدلّة وُجودِ اللّهِ تعالى في كونه، من خِلال إشارات هذه الأسماء.

فيلفته اسْمَا الله «الحكيم والرشيد» إلى عظيم حكمةِ اللّهِ ورشاده في مخلوقاته، وعظيم حكمته ورشاده في شرائعه المنزلة على رسله، فيجد فيها ما لا يُحْصَى من دقائق الحكمة والرشاد، التي لا تصدر إلّا عن حكيم رشيد عليم، وهو الربُّ العظيم، فيؤمِن به مِلْءَ فكره وقلبه، بل مِلْءَ كل ذرَّة مِن ذرّاته.

وهكذا تلفته أسماءُ اللّهِ «الخالق البارىء البديع المُصَوِّر الهادي» إلى الدلائل العظيمة على الربّ الأعلى، المُنْبَثَّة في المخلوقات، وتنتقل به من تصميم أجزاء هٰذه المخلوقات في مقاديرها المحكمة، إلى تبرئتها من النقص في تكوينها، ثم إلى إبداعها على غير مثال سبق، ثم إلى تصويرها بأجمل صورة وأكملها بِحَسَب الغاية التي أُعِدَّ لها كلُّ مَخْلوق، ثم إلى هداية هٰذه المخلوقات إلى غايات تكوينها ونمائها، بالفطرة والغريزة، أو بالعلم والعقل، فيقرأ هذه الأدلة الكثيرة في مخلوقات الله، قراءة التأمُّل والتفكُّر والتَدَبُّر، قراءة البحث العلمي الدقيق، فيزداد إيماناً بالله كلّما ازداد تأمُّلاً وتفكُراً.

وكذلك تلفته أسماء الله «المبدىء المعيد الباعث المحيي المميت» إلى كمال قدرة الله تعالى في التصرُّف بالأشياء بَدءاً وإعادة، وحياةً ومَوْتاً وبعثاً، وأنّ ناصية كلِّ شيء في يده تعالى. فيخضع خضوع العبد المملوك، الذي لا حول ولا قوة إلّا بربّه الذي منحه الوجودَ، وكتب عليه الموتَ، ووعده البعث.

ثم يلفته اسما الله «الجبار القهّار» إلى معنى أن تَصَرُّفَ اللّهِ بعبيده تصرُّف الإلزام والقهر، دون أن يكون لهم رأي في أنفسهم أو في الكون مِن حولهم، فيُسَلِّم لقضاء الله وتصرّفه في كونه؛ لأنه خالقه ومالكه، وخير للعبد، وأهدأ نفساً، وأسعد قلباً، وأكمل إيماناً له، أن يستسلم لله الجبّار القهّار، ويفوّض له

الأمرَ، ويُسَلِّمَ له تسليماً، سواء في خلقه، أو في حُكمه، أو في قضائه.

ثم تلفته أسماء اللَّهِ: «القيومُ الحفيظُ المؤمنُ المهيمن» إلى حاجة الموجودات بعد وُجودِها إلى ربّها في بقائها وقيامها في الوجود، بِقيُّوميّة الله لها، وحفظه إيّاها، وتأمين قلوب ذوي القلوب منها، وإفراغ الطمأنينة والسكينة عليها، بهيمنته جلَّ وعَلَا. فيعود إلى ربّه مُلتجئاً إليه، طالباً عونَه ومَدَدَهُ، وحِفْظَهُ وأَمْنَهُ، ولا يلتمس أيَّ شيء مِن ذلك عند غيره سبحانه، فهو الذي بيده كلُّ شيء، وهو القادرُ على كل شيء.

وبعد أن ذكرنا أسماءَ اللَّه المتعلّقة بالخلق والتكوين العام، نأتي على ذكر مجموعة من الأسماء الحسنى تدخل في باب رزق المخلوقات الحيَّة، وهي: الرزّاق والمُقيت والمغني والقابض والباسط.

obeikandl.com